

من تراثنا القصصى

إشراف د. عبد الحميد إبراهيم

نَوَادِرُ الْحُبِّ وَالْحِكْمَةِ



تأليف: د. عبد الحميد إبراهيم

دار الشروق

نَوَادِرُ الْحُبِّ
وَالْحِكْمَةِ

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيديو المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - فليفلون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

د.عبد الحميد إبراهيم

نَوَادِرُ الْحُبِّ وَالْحِكْمَةِ

دار الشروق

تقديم

- ١ -

فى الليلة الأولى من كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، يدور حوار بين أبى حيان التوحيدى والوزير حول الحديث ولذاته، يقترب فيه مفهوم الحديث إلى المفهوم الفنى، الذى لا يقف عند تحرى الحقائق، بل يحتوى من الاختلاق ما يثير التسلية والمتعة، فقد «وضع فيه الباطل، وخلط بالمحال، ووصل بما يعجب ويضحك، ولا يثول إلى تحصيل وتحقيق، مثل «هزار أفسان»^(١)، وكل ما دخل فى جنسه من ضروب الخرافات».

ويستمر الحوار وينكشف من خلاله أن هذا الفن، قد ألفت حوله المؤلفات، وصنف فيه «أبوزيد» رسالة «لطيفة الحجم فى المنظر، شريفة الفوائد فى المخبر على حد تعبير أبى حيان، وكان يقصده الناس بحثا عن تلك اللذة الفنية، وقد روى أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه: «قد قضيت الوطر من كل شىء إلا محادثة الإخوان فى الليالى الزهر على التلال العفر».

(١) كتاب فى الخرافات، وذكر ابن النديم فى الفهرست أن هذا العنوان يعنى «ألف خرافة» وذكر من أسباب تأليفه ما جعل البعض يرون أنه أصل لألف ليلة وليلة.

وترد في هذه المجموعة قصة تحت عنوان «الغاز وحلول»، يسأل فيها شن صاحبه وهما يركبان الإبل: «أتحملني أم أحملك»، فيتهمه صاحبه بالغباء «يا جاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني». ولكن ابنته الذكية وكانت تسمى طبقة كشفت له عن هذا اللغز، وأن صاحبه يعنى أتحدثني أم أحدثك، فإن الحديث يقطع الطريق، ويرفع الملل، فلا يحس المرء بطول السرى.

وكان جزاؤها أن تزوجها صاحب اللغز، ومن يومها قيل: وافق شن طبقة.

فالحديث هو لذة العرب، يجلسون صيفا أمام الخيام، وتحت ضوء القمر يتحدثون، ويتحلقون شتاء حول النيران، وتحت ألسنتها المتصاعدة يتحدثون. وهم في كل مرة يشرقون ويغربون، ويروون أخبار الجان، وقصص العشاق والفرسان، حتى يدركهم الصباح، فيسكتوا عن الكلام المباح.

يقف الناس بباب بعض الولاة، يطول بهم الوقوف، ويصيبهم الضيق، وإذا بأعرابي ظريف يتغلب على هذا الضيق وينادى: من أراد أن يسمع العجائب، فليدن منى.

ثم يقص عليهم قصة حبه لأم جحدر^(١).

ومثل هذا الأعرابي الظريف كثيرون ممن تخلقهم اللحظة المناسبة، هم يتمتعون بموهبة القص فيقصون، ويتوافد عليهم الناس من كل مكان فيستمعون بعملية القص.

(١) تزيين الأسواق / ١ / ٣٧.

- ٢ -

وقد تناثرت هذه القصص فى الكتب الأدبية، مثل الأغاني، والعقد الفريد، وتزيين الأسواق، والبيان والتبيين، وكانت تقوم بوظيفة المتعة والتسلية، وفقا للمنهج التأليفى فى تلك العصور، الذى يجمع بين الشعر والقصة، والجد والهزل، وينتقل من طرفة إلى طرفة، حتى ينشط القارئ، ويذهب عنه الملل.

بل ألفت كتب كثيرة حول نوع واحد من القصص، مثل قصص الأنبياء للثعالبي، وقصص البخلاء للجاحظ، وأخبار النساء لابن قيم الجوزية.

وقد ذكر ابن النديم تحت عنوان «أسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام» نحوًا من اثنين وأربعين كتابًا. وذكر تحت عنوان «أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر» نحوًا من ثمانية وثلاثين كتابًا. وذكر تحت عنوان «أسماء الحبايب المتطرفات» نحوًا من اثني عشر كتابًا. وذكر تحت عنوان «أسماء العشاق من سائر الناس» نحوًا من ثمانية وعشرين كتابًا. وذكر تحت عنوان «أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس» نحوًا من ستة عشر كتابًا. ثم ختم كل هذا بقول محمد بن إسحاق:

«كانت الأسمار والخرافات مرغوبا فيها مشتهاة، أيام خلفاء بنى العباس وسيما فى أيام المقتدر، فصنف الوراقون وكذبوا، وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان، واسمه أحمد بن دلان، وآخر يعرف بابن العطار، وجماعة^(١)».

(١) الفهرست ص ٤٢٦

- ٣ -

ويخيل لى أن هناك جنسا أدبيا لا يقل فى أهميته عن الشعر أو الخطابة، انتشر بين العرب، يعبر عن حاجة فنية وله رواته ومؤلفوه، وله جمهوره الذى يتبعه ويتناقله من جيل إلى جيل .

ولعللى لا أخطئ لو سميت هذا الجنس الأدبى «فن النادرة العربية» .

- ٤ -

وتتميز النادرة العربية بملمحين رئيسين:

أولهما: أنها تقال للمتعة الخالصة، التى لا يشاركها شئ وبطريقة تلقائية، تجدد النفس، وتدفع السأم .

ومن هنا نرى القواميس العربية عندما تشرح كلمة «الحديث» تضعها فى مقابل القديم، وتعنى بها التجدد، ومنه قيل «الأحدوثة» للحديث المضحك أو الخرافة، وقيل «الحديث ذو شجون» أى يتنقل فيه من حال إلى حال، ولا يقف عند حالة واحدة فيجر الركود والملل .

ويؤكد أبو حيان التوحيدي هذه المعانى فى ليلته الأولى، ويقول: «والحس شديد اللهج بالحادث والمحدث والحديث، لأنه قريب العهد بالكون وله نصيب من الطرافة . ولهذا قال بعض السلف: حادثوا هذه النفوس، فإنها سريعة الدثور كأنه أراد: اصقلوها، واجلوا الصدا عنها، وأعيدوها قابلة لودائع الخير» . والنادرة تتميز بذلك عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى، التى لا تقف عند المتعة الخالصة، بل تشرك معها أغراضا أخرى فالشعر قد يهدف إلى المدح أو الرثاء أو الهجاء . والخطابة تهدف

إلى التوجيه والنصح ، والكتابة قد تحمل مضمونا يحث على الطاعة والامثال .

أما النادرة فهي فن خالص ، يقصدها متلقيها في الوقت المناسب والحاجة في نفسه ، يذكرون أن الحجاج قد أرق ذات ليلة فاستدعى ابن القرية وكان مشهوراً بنوادره وملحه ، وطلب منه حديثاً يقصر ليله ، وأن يكون في مكر النساء فقص عليه قصة امرأة استطاعت أن تحتال على الناسك والقاضي والحاجب وصاحب الشرطة حتى استردت حقها . وقد أعجب بمهارة القاص وعلق بقوله : «ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها»^(١) . ثم راح في سبات عميق .

أما ملمحها الثاني : فيتمثل في أن معظم جمهورها من العامة فإذا صح أن الشعر قد ازدهر في قصور الأغنياء ، فإنه يصح أيضاً أن النادرة قد ازدهرت في بيوت الفقراء ، وأن جمهورها كان من العجائز والصغار والنساء وسائر الطوائف الشعبية .

وترد في هذه المجموعة ثلاث نوادر تدور حول بطل من الأعراب أو عامة الناس .

الأولى : تحت عنوان «الأعرابي والحساء» وتنتهي بأن الحساء تفضل حببها الفقير على صاحب القصور وتنشد :

هذا وإن أصبح في أطمار وكان في نقص من اليسار
أعز عندي من أبي وجارى وصاحب الدرهم والدينار

والثانية : تحت عنوان «مأساة عاشق» وهي عن أعرابي مغمور يقتل نفسه

(١) المحاسن والأضداد ص ١٧٤

لكى يدفن مع صاحبتنه ، ويوصى صاحبه بأن ينقش على قبره هذا الشعر :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل والعيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف ألفتنا فالיום يجمعنا فى بطنها الكفن
أما الثالثة: فهى تحت عنوان «دفنا خشبا» وهى عن وضاح اليمن الذى
عشقتة زوجة الخليفة على الرغم من أنه يتيم من غمار الناس ، قيل إنه من
حمير ، وقيل إنه من أولاد الفرس .

- ٥ -

ولكنها على الرغم من ذلك أو من أجل ذلك لم تجد الاهتمام الكافى
من النقاد فقد انصرفوا عنها إلى الأجناس الأدبية التى ترضى الخاصة ،
وتحفزهم إلى العطاء .

ومن هنا تجد النقاد يهتمون بغرض المدح ويعلمون الشاعر كيف يمدح
ويدلون على صفات الممدوح ويضعونها فى خانات بحسب
الأفضلية .

أما النادرة العربية فعلى الرغم من أنها جنس فنى خالص يرضى حاجة
العامة ، وعلى الرغم من كثرة التأليف حولها ، وعلى الرغم من تناثرها
فى مختلف الكتب الأدبية فإن النقاد لم يهتموا بها ولم يكتشفوا قوانينها
ولم ترد فى الكتب التى أرست قواعد النقد والبلاغة .

النقاد لم يفهموا ما تحتويه النادرة العربية من عناصر فنية ، تنتمى إلى

جنس القصة أكثر مما تنتمي إلى جنس الشعر بل اعتبروها نوعاً من التطويل الممل ، لأنهم قاسوها بمقاييس الشعر التي تركز على اللفظ وما فيه من قدرة تكثيفية إيحائية .

ويرد عند ابن الأثير نص طريف ، يمكن أن نضعه تحت عنوان «بغل الطاحون» ، ويضربه مثالا للتطويل المخل في القصص ، فيذكر أنه اجتمع مع بعض إخوانه فقال أحدهم «كنت بالجزيرة العمرية في زمن الملك فلان وكنت إذ ذاك صبياً صغيراً فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان في الحارة الفلانية وصعدنا لسطح طاحون لبنى فلان فأخذنا نلعب على السطح فوق مناصبى إلى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ختانة صحيحة حسنة لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيراً منها» .

فاعترض أحد الحاضرين قائلاً «والله إن هذا عمل فاحش وتطويل كثير لا حاجة إليه ، فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبياً تلعب مع الصبيان على سطح طاحون ، فوق صبى منكم إلى أرض الطاحون فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه . ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة في بلد تعرفه ، أو في بلد لا تعرفه ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب ، لم يكن ذلك قدحا في غرابتها ، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية في الحارة الفلانية في طاحون بنى فلان ، وكانت زمن الملك فلان فإن مثل هذا كله تطويل ولا حاجة إليه والمعنى المقصود مفهوم بدونه»^(١) .

ويبدو أن ابن الأثير يورد هذا الاعتراض بقدر كبير من الموافقة ، ويبدو

(١) المثل السائر ص ١٩٧

أنه يعكس بذلك موقف نقاد عصره الذين لم يتنبهوا للمقاييس الخاصة بالفن القصصى وطبقوا عليه ما قد رسخ في أذهانهم من مقاييس بلاغية ونقدية متعلقة بجنس الشعر ولم يدركوا أن التطويل قد يكون مطلوباً في الفن القصصى لأن تصوير الموقف والإيهام بالواقع شيء مطلوب، لما يحدثه من إشباع فنى فى حد ذاته .

ومن هنا لم تتطور القصص العربية وأصبحوا ينظرون إليها كما ينظرون إلى الأخبار التاريخية يتناقلونها من كتاب إلى كتاب دون تغيير جوهرى يمس بنيتها الفنية .

- ٦ -

ولكن هذه القصص تتطور بصورة واضحة، حين تنتقل إلى السير الشعبية فالراوى قد تخلص من صرامة التاريخ، وأصبح همه الأول أن يثير فضول المستمع .

إن قصة الشاب الذى ادعى السرقة من منزل حبيبته حتى لا يكشف أمرها ترد فى كتب أدبية مثل ذم الهوى وأخبار النساء دون تغيير جوهرى .

وتنتقل هذه القصة إلى ألف ليلة وليلة فيحدث فيها تغيير يمس بنيتها الفنية، ويضيف إليها الراوى الكثير من العناصر الفنية من بداية مشوقة وفى وصف للشخصية يثير التعاطف، ومن مفاجآت مدهشة ومن استخدام لعنصر الحوار وفى وقفات تثير انتباه المستمع ثم ينهيها تلك النهاية التقليدية التى تثير جوا من البهجة والفرح فيتزوج الفتى من الفتاة

ويقول الراوى: «فما رأيت يوماً أعجب من ذلك اليوم أوله بكاء وشرور وأخره فرح وشرور»^(١).

ومع ذلك لم تجد هذه السير الاهتمام الكافى من النقاد العرب، فقد انصرفوا عنها أيضاً بسبب لغتها الركيكة وألفاظها السوقية، واعتبروها من لغو الحديث ويذكر أبو الفرج أن بين أيدي الناس كتاباً عن وضاح اليمن وخبره مع روضة، استكبر أن ينقل عنه لأنه مصنوع غث الحديث والشعر^(٢).

- ٧ -

ويأتى سوء الطالع للمرة الثالثة فى القرن التاسع الميلادى وعلى يد إرنست رينان، والذي جاء امتداداً للموجة التعصبية التى صحبت الحركة الاستعمارية، وقسم العالم إلى أجناس بشرية يفضل بعضها الآخر، وكان نصيب الجنس السامى أن يكون أقل فى الرتبة من الجنس الأرى، لأنه لا يعرف فن القصة ولا يستطيع خلق الأحداث، ولا تصوير المواقف وخياله لا يمتد بعيداً عن عنصر التشبيه الذى يقوم فقط بالربط بين شيئين دون أن يوغل فى الابتكار وصنع الأحداث.

وقد ظهرت هذه الدعوى فى فترة كان العرب يرددون كل ما يجىء من أوروبا، وبصورة يقينية لا تقبل المراجعة.

ومن هنا نجد النقاد العرب يرددون مقولة إرنست، بحماسة شديدة، ويلتمسون من الوقائع التاريخية والاجتماعية ما يؤكد صحتها، فهم يناقشونها ولكن ينطلقون منها ويضيفون إليها.

(٢) الأغاني ٦/ ٣٠ «ساسى».

(١) ألف ليلة وليلة ٢/ ٣٨٨.

فالزيات في كتابه «تاريخ الأدب العربي» يجمع الأسباب، في أن مزاوله فن القصة تقتضى الروية، والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال وتتطلب الإلمام بطبائع الناس وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم. (ص ٢٦).

وأحمد أمين في فجر الإسلام يضيف أسباباً أخرى تلخص في أن عربي الجاهلية «خياله محدود وغير متنوع، وقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته، وحياة خيراً من حياته.

لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه، ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله (ص ٧٧).

والعقاد أيضاً في كتابه «الفصول» يقول عن العرب «كانوا قبائل رحلا يؤمنون المدن في مواسم، تنقسمها العبادة والتجارة والخطابة. فأتمر التاريخ والإقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال» (ص ١٤٠).

وظل العقاد ثابتاً على موقفه في رفض فن القصة، وذكر في كتابه «في بيتي» كلاماً يشبه قصة «بغل الطاحون» التي أشار إليها ابن الأثير (الفقرة ٥). فالقصة عند العقاد درهم حلاوة وقنطار خشب وضرب المثل ببيت من الشعر يمكن أن تعبر عنه القصة في صفحات طويلة فهو هنا يطبق مقاييس الشعر على فن القصة دون أن يتنبه إلى أن الجهة منكفة وإلى أن القصة قد تهدف إلى التطويل لكي تصور الموقف وتشاكل الواقع.

وتظهر مدرسة الفجر وتتخذ من جملة «الهدم والبناء» شعاراً لها،

وهى تعنى بذلك هدم الأدب القديم الذى نشأ فى الصحراء ، ولا يستطيع أن يعبر عن خلجات نفوسنا ، ثم بناء الأدب الجديد الذى يأتى من أوروبا ، ويعكس مظاهر الحضارة المعاصرة .

وقد دعت هذه المدرسة إلى فن القصة بمفهومها الأوروبى ، وتحملت فى هذه الدعوة عن طريق المترجمات والتأليف والمسابقات والنشر فى صحيفة الفجر .

فكان أن حدثت القطيعة بين التراث القصصى وبين القصة الحديثة بمفهومها الأوروبى ، وتوقفت حركة استيحاء المقامات ، واتجه الشباب نحو موباسان وتشيكوف وبو ديكترز ، وغيرهم من أعلام القصة الأوروبية .

وأخذ المؤرخون للقصة العربية الحديثة ، يؤصلون لمسيرتها بداية من نقطة القطيعة مع التراث العربى ، والسير وراء أعلام القصة الأوربية .

فالدكتور شكرى عياد يكتب مؤلفاً عن «القصة القصيرة فى مصر» ، يذكر على غلافه أنه يحاول فى هذا الكتاب أن يتابع حركة تأصيل هذا الفن فى التربة المصرية .

وهو يبدأ نقطة التأصيل من الاتجاه الواقعى ، الذى بشرت به مدرسة الفجر ، واحتذت فيه بالشكل الأوروبى .

وبذلك انحسر التراث القصصى مرة أخرى إلى بطون الكتب ، وأصبح مجرد نصوص تتلى للتسلية ، وانصرف ، النقاد عن فن النادرة وتعرضت للمرة الرابعة إلى سوء طالع كان قاصماً لأنه يعنى أن التاريخ القصصى عند العرب يبدأ فقط منذ استيحاء الشكل الأوروبى ، أى فيما

يقل عن قرن من الزمن ، وإلغاء أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن ، ظلت القصة العربية فيها تعطى وتمتع جمهورها ، الذى كان يبحث عنها فى كل مكان .

- ٩ -

ومن هنا تأتى أهمية هذا المشروع عن التراث القصصى عند العرب . فهو يحاول من ناحية أن يقوم برد اعتبار لعنصر التراث ، وأن يوجه النقاد إلى دراسته من داخله ، واكتشاف قوانينه الخاصة به .

وهو يحاول من الناحية الثانية أن يعيد الحلقة المفقودة بين التراث والفن القصصى المعاصر ، وأن يلفت نظر المبدعين إلى استيحائه سواء فى القالب أو الرؤية ، فيضيفوا الى مسيرة الحركة الأدبية العالمية تياراً يميزا يعكس موقفا حضارياً .

وهو من أجل ذلك كله يقدم هذا التراث القصصى مضبوطاً وموثقاً من ناحية .

وهو من ناحية أخرى ، يقدم دراسات متخصصة حول هذا التراث تؤسس لحركة نقدية جديدة ، تكتشف قوانين أصيلة نابغة من تاريخ الفن القصصى عند العرب ، تساعد على تطوره من مرحلة إلى مرحلة .

فإذا استطاع هذا المشروع أن يحقق ولو شيئاً من أهدافه ، فهذا جزاؤه الذى يدفعه إلى مواصلة الطريق بعون الله .

الباب الأول نماذج تراشية

إذن بالدخول

بَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بن الجعفر في أَرْقَةَ المدينة إذ سمع غناءً، فأصغى إليه،
فلذا بصوت شَجِيٍّ رقيقٍ لَقِيْنَةُ تغنى :

قُلْ لِلْكَرَامِ بَابَنَا يَلْكُجُوا ما في التَّصَابِي على الفتى حَرَجُ
فنزل عبدُ الله عن دَابَّتِهِ، ودخل على القوم بلا إذن؛ فلما رأوه قاموا
إليه إجلالاً، ورفعوا مجلسه؛ ثم أقبل عليه صاحبُ المنزل، فقال : يا بن
عم رسول الله؛ دخلتَ منزلنا بلا إذن، وما كنتَ لهذا بخليقٍ! فقال
عبدُ الله : لم أدخل إلا بإذن .

قال : ومن أذن لك؟ قال : قِيَّتِكَ هذه، سمعتها تقول :

* قُلْ لِلْكَرَامِ بَابَنَا يَلْكُجُوا . . . *

فإن كنا كراماً فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين؛ فضحك
صاحبُ المنزل وقال : صدقتَ، جعلتُ فداك! ما أنت إلا من أكرم الأكرمين .
ثم بعث عبدُ الله إلى جارية من جَوَّارِيهِ، فقال لها : غَنِّي، فغَنَّتْ؛
فطربَ القوم، وطرب عبدُ الله، فدعا بثيابٍ وطيبٍ فكسا القومَ وصاحب
المنزل، وطيبَهم، ووهب له الجارية، وقال له : هذه أحذق بالغناء من
جاريتهك .

العقد الفريد ٩٩/٤

الأعرابي والحسناء

تزوج أعرابي ظريف ابنة عم له ، فلما أصابته نائبات الزمن وحادثات
 الدهر على حد تعبيره ، رغب عنه أبوها ، فاشتكاها إلى ابن أم الحكم ، وإذا
 بهذا يعجبه جمال المرأة ، فيعطى أباهما عشرة آلاف درهم ، ويحبس
 الأعرابي ، فيضطر إلى طلاقها . ثم يأتى إلى معاوية ، ويشكو إليه عامله ،
 ويقول له . وهو يبكى :

والنار فيها شنار	فى القلب منى نار
والجمر فيها شرار	وفى فؤادى جمر
واللون فيه اصفرار	والجسم منى نحيل
فدمعها مدرار	والعين تبكى لشجو
فيه الطبيب يحار	والحب داء عسير
فما عليه اضطبار	حملت منه عظيما
ولا نهارى نهار	فليس ليلى ليلا

فأرسل معاوية إلى ابن أم الحكم كتابا عظيما ، جاء فى آخره :
 ركبت أمرا عظيما لست أعرفه أستغفر الله من جور امرئ زان
 قد كنت تشبه صوفيا له كتب من الفرائض ، أو آيات فرقان
 حتى أتانى الفتى العذرى منتحبا يشكو إلى بحق غير بهتان

أعطى الإله عهداً لا أحث بها أولاً فـأبرأ من دين وإيمان
 طلق سعاد وفارقها بمجتمع وأشهد على ذلك نصر وابن طيبان
 إن كنت راجعتني فيما كتبت به لأجعلنك لحمايين عقبان
 فما سمعت كما بلغت من عجب ولا فعالك حقاً فعل إنسان

ويرد الكتاب إلى ابن أم الحكم، فيقول «وددت أن أمير المؤمنين، خلى بيني وبينها سنة، ثم عرضني على السيف» ويدور في داخله صراع، يطلقها أم يمسكها، وأخيراً يزعه الوفد، فيتغلب على عاطفته ويغلب واجبه، فيطلقها، وتخرج سعاد، فإذا هي «شكلة، غنجة، ذات هيبة وجمال، ويراها الوفد فيقول: ما تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين، لا لأعرابي. فيرسلها ابن أم الحكم إلى معاوية. ويرد على كتابه، بكتاب من «البحر» نفسه، ومن «القافية» نفسها:

لا تحنن أمير المؤمنين وفي بعهدك اليوم في رفق وإحسان
 ، ما ركبت حراماً حين أعجبتني فكيف سميت باسم الخائن الزاني
 سوف تأتيك شمس، لا خفاء بها أبهى البرية، من إنس ومن جان
 حوراء، يقصر عنها الوصف، إن وصفت أقول ذلك في سر وإعلان

ويرد الجواب على معاوية، فيقول: «إن كنت أعطيت حسن النعمة مع هذه الصفة، فهي أكمل البرية». ويستنطقها «فإذا هي أحسن الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلاً».

قال معاوية للأعرابي: يا أعرابي، هل من سلو عنها، بأفضل الرغبة؟
 قال: نعم، إذا فرقت بين رأسي وجسدي، ثم أنشأ يقول:

لا تجعلنى والأمثال تضرب بى كالمستغيث من الرمضاء بالنار
 اردد سعاد على حران مكتتب يمسى ، ويصبح فى هم وتذكار
 قد شفه قلق ما مثله قلق وأشعر القلب منه ، أى شعار
 والله والله لا أنسى محبتها حتى أغيب فى رسم وأحجار
 كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبار

فغضب منه معاوية غضبا شديدا ، ولم يجد بدا من أن يخير الحسناء
 الفاتنة بينه ، وبين ابن أم الحكم ، وبين الأعرابى . وإذا بتلك الحسناء تختار
 الأعرابى ، وتؤثره على الثروة والجاه ، وتنشد :

هذا ، وإن أصبح فى أطمار وكان فى نقص من اليسار
 أعز عندى من أبى وجارى وصاحب الدرهم والدينار

أخشى إن غدرت حر النار

فقال معاوية : خلدها ، لا بارك الله لك فيها . فأنشأ الأعرابى يقول :
 خلوا عن الطريق للأعرابى إن لم ترقوا ويحكم لما بى
 فضحك معاوية ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . وناقة ، ووطاء .

مصارع العشاق ص ١٧٨

ذم الهوى ص ٣٣٨

مأساة عاشق

حدث أحد الرواة :

«خرجت في نشدان ضالة لى ، فأوانى المبيت إلى خيمة أعرابى ،
فقلت : هل من قرى ؟ قال لى : انزل ، فنزلت ، فشئ لى وسادة ، وأقبل
على يحدثنى ثم أتانى بقرى ، فأكلت . فبينما أنا بين النائم واليقظان ، إذا
أنا بفتاة قد أقبلت لم أر مثلها جمالا وحسنا ، فجلست ، وجعلت تحدث
الأعرابى ويحدثها ، ليس غير ذلك ، حتى طلع الفجر ، ثم انصرفت ،
وقلت : والله لا أبرح موضعى هذا حتى أعرف خبر الجارية والأعرابى .
قال : فمضيت فى طلب ضالتي يوما ، ثم أتيته عند الليل فأتى بقرى ،
فبينما أنا بين النائم اليقظان وقد أبطأت الجارية عن وقتها قلق الأعرابى ،
فكان يذهب ويجىء ، وهو يقول :

أعاجها طرب أم صاها شغل	ما بال مية لا تأتى كعادتها
حتى الممات ومالى غيركم أمل	لكن قلبى عنكم ليس يشغله
لما اعتذرت ولا طابت لك العلل	لو تعلمين الذى بى من فراقكم
تكاد من حره الأعضاء تنفصل	نفسى فداؤك قد أحللت بى سقما
لماد وانهد من أركانه الجبل	لو أن غاديه منه على جبل

ثم أتانى فأنبهنى ، وقال : إن خلتي التى رأيت بالأمس قد أبطأت

على ، وبينى وبينها غيضة . وقال : ولست آمن عليها ، فأنظر ما ها هنا ،
حتى أعلم علمها . ثم مضى فأبطأ قليلا ، ثم جاء بها يحملها ، وإذا السبع
قد أصابها ، فوضعها بين يدي ، ثم أخذ سيفه ومضى . فلم أشعر إلا وقد
جاء بالأسد يجره مقتولا ، ثم أنشأ يقول :

ألا أيها الليث المضر بنفسه هبلى لقد جرت يدك لك الشرا
أخلفتني فردا وحيدا مدلهـا وصيرت آفاق البلاد لها قبرا
أصيح دهرًا خانني بفراقها معاذ إلهي أن أكون لها برا

ثم أقبل على فقال : هذه ابنة عمى كانت من أحب الناس إلى فمنعنى
أبوها أن أتزوجها ، فزوجها رجلا من أهل هذه الأبيات ، فخرجت من
مالي كله ، ورضيت بالمقام ها هنا على ما ترى ، فكانت إذا وجدت خلوة
أو غفلة من زوجها ، أتتني فحدثتني وحدثتها كما رأيت ، ليس شيء
غيره ، وقد آليت على نفسي ألا أعيش بعدها فأسألك بالحرمة التي جرت
بينى وبينك إذا أنا مت فلفنى وإياها فى هذا الثوب ، وادفنا فى مكاننا
واكتب على قبرى هذا الشعر :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل والعيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف ألفتنا فالיום يجمعنا فى بطنها الكفن

ثم اتكأ على سيفه فخرج من ظهره ، فسقط مغشيا عليه ، فلففتها فى
الثوب وحفرت لهما ، فدفنتهما فى قبر واحد ، وكتبت عليه كما أمرنى .

مصارع العشاق ص ٢٢٩

دفنا خشباً

كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين . وكان لها من قلبه موضع فقدم عليه من ناحية مصر جوهر له قدر وقيمة . فدعا خصيا له وقال : اذهب بهذا إلى أم البنين ، وقل : أتيت به الساعة ، فجئت به إليك . فأتاها ، فوجد عندها وضاح اليمن ، وكان من أجمل العرب ، وأحسنهم وجهاً فعشقتة أم البنين . فأدخلته عليها ، فكان يكون عندها ، فإذا أحست بدخول يزيد أدخلته في صندوق من صناديقها . فلما رأت الغلام قد أقبل ، أدخلته إلى الصندوق ، فرآه الغلام ، ورأى الصندوق الذى فيه ، فوضع الجوهر بين يديها ، وأبلغها رسالة يزيد ثم قال : يا سيدتى هبى لى منه لؤلؤة . قالت : لا ولا كرامة . وغضب وجاء إلى مولاه ، وقال : يا أمير المؤمنين : إنى دخلت عليها وعندها رجل ، فلما رأتنى ، أدخلته صندوقاً وهو فى الصندوق الذى من صفته كذا وكذا .

فقال يزيد : كذبت ، يا عدو الله جثوا عنقه . ثم قام ولبس نعله ، ودخل على أم البنين وهى تمتشط فى خزانتها . فجاء حتى جلس على الصندوق الذى وصفه الخادم ، فقال : يا أم البنين ، ما أحب إليك هذا البيت . قالت : يا أمير المؤمنين أدخله لحاجتى ، وفيه خزانتى . فما أردت من شيء ، أخذته من قريب . قال : فما فى هذه الصناديق التى أراها ؟ قالت : حلى وأثاثى . قال : فهبى لى منه صندوقاً . قالت : كلها يا أمير

المؤمنين لك . قال : لا أريد إلا واحدا ، ولك على أن أعطيك زنته وزنة ما فيه ذهباً . قالت : فخذ ما شئت . قال : هذا الذى تحتى . قالت : يا أمير المؤمنين عد عن هذا ، وخذ غيره فإن لى فيه شيئا يقع بمحبتى . قال : ما أريد غيره . قالت : هو لك . قال : فأخذه ودعا الفراشين ، فحملوا الصندوق فمضى به إلى مجلسه ، فجلس ولم يفتحه ، ولم ينظر ما فيه . فلما جنة الليل ، دعا غلاما له أعجميا ، فقال له : استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل مصر . قال : فجاءوا بهم وأمرهم فحفروا له حفيرة فى مجلسه حتى بلغوا الماء ، ثم قال : قدموا لى الصندوق . فألقى فى الحفيرة ، ثم وضع فمه على شفيره ، فقال : يا هذا قد بلغنا عنك خبر ، فإن يك حقا فقد قطعنا أثره ، وإن يك باطلا ، فإنما دفنا خشبا . ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى . قال : فلم ير الوضاح حتى الساعة . قال : فلا والله ما بان لها فى وجهه ولا فى خلأثقه شىء ، حتى فرق الموت بينهما .

مصارع العشاق ص ٢٧٦

تزيين الأسواق ١/١٦٩

ذم الهوى ص ٣٧٦

مكر النساء

كان لقمان بن عاد بن عاديا الذى عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء ، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارة صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتا فى سفح جبل ، وجعل لها درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد فإذا خرج رفعت السلاسل .

حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه . فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حربا لا تقومون بها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : امرأة لقمان بن عاد هي أحب الناس إلى .

قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم اثتوا لقمان فقولوا له : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوما .

ففعلوا وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج لقمان ، وتحرك الرجل ، فخلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف . حتى انقضت الأيام .

ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فإذا نخامة تنوس فى السقف . فقال لامراته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى . ففعلت فلم تصنع شيئا . فقال : يا ويلتاه السيوف دهنتى ! ثم رمى بها فى ذروة الجبل فتقطعت قطعاً .

ثم انحدر مغضباً فإذا ابنة له يقال لها صحر . فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك؟ قال : وأنت أيضاً من النساء . فضرب رأسها بصخرة فقتلها ، فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر . فصارت مثلاً .

مصارع العشاق ص ٢٨

معاذ الله

« خرج أبو دهبيل الجهمي يريد الغزو . وكان رجلا جميلا صالحا ، فلما جاء بجيرون جاءته امرأة فأعطته كتبا ، فقالت له : اقرأ لي هذا . فقراه لها . ثم ذهبت ، فدخلت قصرا ، ثم خرجت إليه . فقالت له : لو بلغت معي هذا القصر ، فقرأت الكتاب على امرأة فيه ، كان لك أجران إن شاء الله ، فبلغ معها القصر . فلما دخل إذا فيه جوار كثيرة ، فاغلقت عليه باب القصر فإذا امرأة جميلة قد آتته فدعته إلى نفسها فأبى . فأمرت به فحبس في بيت من القصر ، وأطعم وأسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت ، ثم دعته إلى نفسها فقال : أما في الحرام فلا يكون ذلك أبدا ، ولكن أتزوجك . قالت : نعم . فتزوجها وأمرت به فأحسن إليه ، حتى رجعت نفسه إليه فأقام معها زمانا طويلا ، لم تدعه يخرج من القصر حتى يثس منه أهله ولده ، وزوج أولاده بناته واقتسموا ميراثه ، وأقامت زوجه تبكى ولم تقسمهم ماله ، ولا أخذت من ميراثه شيئا ، وجاءها الخطاب فأبت ، وأقامت على الحزن والبكاء عليه ، قال : فقال أبو دهبيل لامراته يوما : إنك قد أثمت في وفي ولدي ، فأذني لي أن أخرج إليهم وأرجع إليك ، فأخذت عليه أيمانا ألا يقيم سنة حتى يعود إليها ، وأعطته مالا كثيرا . فخرج من عندها بذلك المال ، حتى قدم أهله فرأى زوجته ، وما صارت إليه من الحزن ونظر إلى ولده بمن اقتسم ماله وجاءوه ، فقال : ما بيني وبينكم ، أنتم ورثتموني وأنا حي فهو حظكم ، والله لا يشرك

زوجتي أحد فيما قدمت به . وقال لزوجته : شأنك بهذا المال كله ، فهو
لك ، ولست أجهل ما كان من وفائك وأقام معها ، وقال في الشامية :
صاح ، حيا الإله حيا ودودا عند أصل القناة من جيرون
فبتلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى ، مرجمات الظنون
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو اص ، ميزت من لؤلؤ مكنون
فلما جاء الأجل أراد الخروج إليها ، ففاجأه موتها فأقام .

مصارع العشاق ص ٧

سليمى والعاشق

قال يونس الكاتب :

كنا يوماً مُتَنَزِّهين بالعقيق أنا وجماعةٌ من قُرَيْشٍ ، فبينما نحن على حالنا إذ أقبل ابنُ عائشةَ يمشى ومعه غلامٌ من بنى لَيْثٍ ، وهو متوكِّعٌ على يده ، فلما رأى جماعتنا وسَمِعَني أغنىَّ جاءنا فسلَّم ، وجلس إلينا ، وتحدَّث معنا ، وكانت الجماعةُ تعرفُ سوءَ خُلُقِهِ وغيظِهِ إذا سئل أن يُغنى ، فأقبل بعضهم على بعض يتحدَّثون بأحاديثٍ كُثِيرٍ وجميلٍ وغيرهما من الشعراء ، يَستَجِرُّون بذلك أن يَطْرَبَ قُيَّغْنى ، فلم يجدوا عنده ما أرادوا .

فقلت لهم : لقد حدثني اليوم بعضُ الأعراب حديثاً يأكلُ الأحاديث ، فإن شئتم حدثتكم إياه ؛ قالوا : هات ، قلت : حدثني هذا الرجل أنه مرَّ بناحية الرَبْدَةِ فإذا صَبِيَّانِ يَتَغَاطُونَ فِي غَدِيرٍ ، وإذا شابٌ جميلٌ منهوكُ الجسم ، عليه أثرُ العلة ، والنَّحُولُ فِي جِسْمِهِ بَيْنَ وهو جالسٌ ينظرُ إليهم فسلمتُ عليه فردَّ عَلَى السَّلام وقال : من أين وَضَحَ الراكب ؟ قلت : من الحمى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحاً ، قال : وأين كان مَبِيتُكَ ؟ قلت : ببْنى فلان ، فقال : أوه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصُّعْدَاءُ فقلت : إنه قد خرَّقَ حجابَ قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سَقَى بِلداً أَمَسَتْ سُلَيْمَى تَحُلُّهُ من المَزْنِ ما يَرَوَى به وَيُسِيمُ^(١)

(١) يسيم : يكون صالحاً للإساءة بما يكون من خصب وكلاء .

ثم سكن كالغشي عليه ، فصحتُ بالصبيّة ، فأتوا بماء ، فصبّته على وجهه ؛ فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصّبُّ الغريبُ رأى حُشوعي وأنفاسي تزيّن بالخشوع
ولى عينٌ أضربُ بها التفاتى إلى الأجزاء^(١) مُطلقةً الدموع
إلى الحَلَوَاتِ يأنسُ فيكِ قلبي كما أنسَ الغريبُ إلى الجميع

فقلتُ له : ألا أنزلُ فأساعدك ، أو أكرّ عودتى على بدنى إلى الحمى إن كانتْ لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جُزيتَ خيراً وصحبّتكَ السلامة ! امضْ لطيّتك^(٢) فلو أنى علمتُ أنك تُغننى عنى شيئاً لكنتَ موضعاً للرغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة ولكنك أدركتنى فى صُبابة من حياتى يسيرة ، فأنصرفتُ وأنا لا أراه يُمسى ليلته إلاّ ميتاً .

فقال القوم : ما أعجبَ هذا الحديث ! واندفع ابنُ عائشة فتغننى فى الشعرين جميعاً وطرب وشرب بقية يومه ولم يزل يغنينا إلى أن انصرفنا .

الأمالي ص ٣٨

(١) الأجزاء جمع جزء : وهو جانب الوادى ومنعطفه .

(٢) لطيتك : لوجهتك .

سلطان الفن

لقى عطاء بن أبي رباح ابن سريج بذي طوى^(١) ، وعليه ثياب مصبغة ، وفي يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلفت ، فقال له عطاء : يا فتان ؛ ألا تكف عما أنت عليه ا كفى الله الناس مثونتك . فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي ؟ فقال له : تفتنهم بأغانيك الخبيثة . فقال له ابن سريج : سألتك بحق من تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ما سمعت مني بيتاً من الشعر ، فإن سمعت مني منكراً أمرتني بالإمساك عما أنا عليه ، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البنية^(٢) لئن أمرتني بعد استماعك مني بالإمساك عما أنا عليه لأفعلن ذلك .

فأطمع ذلك عطاء في ابن سريج ، وقال : قل ، فاندفع يغني بشعر جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا^(٣) بعينك لا يزال معينا^(٤)
غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

(٢) البنية : الكعبة .

(٤) المعين : الجارى السائل .

(١) ذو طوى : موضع بمكة .

(٣) الوشل : الدمع الكثير .

فلما سمع عطاء الغناء اضطربَ اضطراباً شديداً ودخلته أريحية ،
 فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من
 المسجد الحرام ، فكان كلُّ مَنْ يأتيه سائلاً عن حلال أو حرام أو خبر من
 الأخبار ، لا يجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وينشد هذا
 الشعر حتى صلى المغرب ، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولا تعرض له .

الأغاني ٥٦/١

لا تقتليه

قال الأصمعي : قدم عراقي بعدل من خمر العراق إلى المدينة ، فباعها كلها إلا السود ؛ فشكا ذلك إلى الدارمي ، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد ، فقال : ما تجعلُ على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال : ما شئت ! فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه فألقاها عنه ، وعاد إلى مثل شأنه الأول ، وقال شعراً رفعه إلى صديق له من المغنين ، فغنى به ، وكان الشعر :

قُلْ للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمراً للصلاة ثيابه حتى خطرت له بباب المسجد
رُدِّي عليه صلاته وصيامه لا تُقتليه بحق دين محمد

فشاع هذا الغناء في المدينة ، وقالوا : قد رجع الدارمي ، وتعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه ، فجعل إخوان الدارمي من النساء يلقون الدارمي فيقولون : ماذا صنعت ؟ فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين ، فلما نفد ما كان مع العراقي رجع الدارمي إلى نسكه وكبس ثيابه !

العقد الضريد ٩٦/٤

الأعرابي الظريف

خرج المهديُّ يتَصَيَّدُ فغار^(١) به فرسه، حتى وقع في خبَاء أعرابيٍّ، فقال: يا أعرابيُّ؛ هل من قرى؟ فأخرج قُرْصَ شعير فأكله؛ ثم أخرج له فضلةً من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيد في ركوة^(٢) فسقاه.

فلما شرب قال: أتدرى من أنا؟ قال: لا، قال: أنا من خَدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله لك في موضعك! ثم سقاه مرةً أخرى فشرب، فقال: يا أعرابيُّ؛ أتدرى من أنا؟ قال: زعمتَ أنَّك من خَدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: لا؛ أنا من قُوَاد أمير المؤمنين.

قال: رَحِبْتُ بلادك، وطابَ مرادك! ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال: يا أعرابيُّ! أتدرى من أنا؟ قال: زعمتَ أنَّك من قُوَاد أمير المؤمنين. قال: لا؛ ولكنني أمير المؤمنين! فأخذ الأعرابيُّ الرُّكوةَ فأوكأها^(٣). وقال: إليك عني! فوالله لو شربت الرابعة لادَّعيتَ أنَّك رسولُ الله.

فضحك المهديُّ حتى غُشى عليه. ثم أحاطت به الخيل، ونزلت به الأمراء والأشرافُ فطار قلبُ الأعرابيِّ؛ فقال له: لا بأسَ عليك، ولا خوف، ثم أمر له بكسوةٍ ومالٍ جزيل.

المستطرف ٢/٢٣٣

(١) غار: أتى الغور وهو المطمئن من الأرض.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٣) أوكى على ما فى سقائه: شده بالوكاء. والوكاء: ما يشد به رأس القربة والمراد ربطها وكف عن سقيه منها.

حديث الأعرابي

قال الفضل بن العباس الهاشمي :

كان ناهض بن ثومة الكلابي يقد على جدّي قُثم ، فيمدحه ويصلّه
جدي وغيره ، وكان بدويًا جافيًا كأنه من الوحش ؛ إلا أنه طيب الحديث .
حدثه يومًا : أنهم انتجعوا ناحية الشام فقصد صديقًا له من ولد خالد
ابن يزيد بن معاوية ؛ كان ينزل حلب وكان برا به .

قال : فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عاصم الهلالي ، فرأيت دورًا
مُتباينة وخصاصًا^(١) قد ضُمَّ بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناسٌ كثيرون
مقبلون ومُدبرون ، عليهم ثياب تحكى^(٢) ألوان الزَّهر ، فقلت في نفسي :
هذا أحدُ العيدين : الأضحى أو الفطر ، ثم تاب إلى ما عزب^(٣) عن
عقلي ، فقلت : خرجت من أهلي في بادية البصرة في صَفَر ، وقد مضى
العيدان قبل ذلك ، فما هذا الذي أرى !

وبينا أنا واقف متعجب أتاني رجل ، فأخذ بيدي فأدخلني دارًا
قوراء^(٤) ، وأدخلني منها بيتًا قد نُجِّدَتْ فيه فرش ومُهَّدت ، وعليها شاب
يَنال فرعَ شعره مُنكبيّه ، والناس حوله سَمَاطان^(٥) ، فقلت في نفسي : هذا

(١) الخصاص : جمع خص ، وهو البيت من القصب .
(٢) تحكى : تشبه .
(٣) ما عزب : ما بعد وما ذهب .
(٤) دار قوراء : واسعة .
(٥) السمَاط : الصف .

الأمير الذي حُكِيَ لَنَا جلوسُهُ، وجلوس الناس بين يديه. فقلت: - وأنا مائل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. فجذبَ رجلٌ يدي وقال: اجلس، فإن هذا ليس بأمير. قلت: فمن هو؟ قال: عروس^(١). فقلت: واثكل أماء! لربِّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من هَنَّة^(٢)!

فلم أنشَبْ^(٣) أن دخل رجالٌ يحملون آنات^(٤) مُدَوَّرَات، أمّا ما خفَّ منها فَيُحْمَلُ حَمَلًا، وأمّا ما كَبُرَ وَثَقُلَ فَيُدَحْرَجُ، فوَضَعَ ذلك أمامنا، وتَحَلَّقَ القوم عليه حَلَقًا، ثم أتينا بخرق بيض فأَلْقَيْتُ بين أيدينا، فظننتها ثيابًا وهممت أن أسأل القوم منها خرقًا أرْقُعُ بها قميصي، وذلك أني رأيت نَسْجًا متلاحمًا لا يبين له سَدَى ولا لُحْمَة^(٥)؛ فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يَتَمَزَّقُ سريعًا، وإذا هو فيما زعموا صِنْفٌ من الخبز لا أعرفه.

ثم أتينا بطعام كثير بين حُلُو وحامض، وحار وبارد، فأكثرت منه، وأنا لا أعلم ما في عَقْبِهِ مِنَ التَّخَمِ والبَشَمِ، ثم أتينا بشراب أحمر في شَن^(٦)، فقلت: لا حاجة لي فيه، فإني أخاف أن يقتلني، وكان إلى جنبي رجل ناصح - أحسن الله جزاءه، فإنه كان ينصح لي من بين أهل المجلس - فقال: يا أعرابي؛ إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء هما^(٧) بطنك، فلما ذكر البطن تذكرت شيئًا أوصاني به أبى، والأشياخُ

(١) العروس: الرجل والمرأة ماداما في أعراسهما، وهم العرس. وهن عرائس.

(٢) الهنة: كناية عن خسيس الشيء.

(٣) لم أنشَب: لم ألْهَم.

(٤) آنات: جمع غير قياسي لأناء.

(٥) السدى من خيوط الثوب: ما مد منها طولًا، واللحمة: ما مد منها عرضًا.

(٦) الشن: القرية ذات الحلقي الصغيرة.

(٧) هما: سال.

من أهلى؛ إذ قالوا: لا تزال حيّا مادام بطنك شديدا، فإذا اختلف فأوص. فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به، وجعلت أكثر منه فلا أملّ شربه، فتداخلى من ذلك صلف لا أعرفه من نفسى، وبكاء لا أعرف سببه، ولا عهد لى بمثله، واقتدار على أمر أظن معه أنى لو أردت نيل السقف لبلغته، ولو شأوت الأسد لقتلته؛ وجعلت ألفت إلى الرجل الناصح، فتحدثنى نفسى بهتم أسنانه، وهشم أنفه، وأهمّ أحيانا أن أشتمه.

فبينما نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة: أحدهم قد علّق فى عنقه جعّة فارسية، مفتحة الطرفين، دقيق الوسط، قد شبكت بخيوط، وألبست قطعة قرّو كأنهم يخافون عليها القرّ. ثم بدر الثانى، فاستخرج من كمّه هنة سوداء فوضعها فى فيه، وأخرج صوتا لم أسمع - وبيت الله - أعجب منه، فاستتمّ بها أمرهم، ثم حرك أصابعه فيها فأخرج منها أصواتا ليس كما بدأ، ولكنه أتى منها - لما حرك أصابعه - بصوت عجيب، متلائم متشاكل بعضه لبعض، كأنه - علم الله - ينطق به. ثم بدا ثالث له وجه كزّ مقيت^(١)، عليه قميص وسخ ومعه مرأتان فجعل يصفق بهما بيديه إحداهما على الأخرى، فخالط بصوته ما يفعله الرجلان. ثم بدا رابع عليه قميص، وسراويل قصيرة، وخفان أجذمان، لا ساق لواحد منهما، فجعل يقفز كأنه يشب على ظهور العقارب، ثم تلبط^(٢) على الأرض، فقلت: معّته ربّ الكعبة! ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندى، ورأيت القوم يحذقونه^(٣) بالدراهم حذقا منكرا؛

(٢) تلبط: اضطلع وتمرع.

(١) وجه كزّ: قبيح. مقيت: عمقوت.

(٣) يحذقونه: يرمونه.

ثم أرسل النساء إلينا : أن أمتعنونا من لهوكم هذا ؛ فبعثوا بهن ، وجعلنا نسمع أصواتهن من بعد .

كان معنا فى البيت شاب لا آبه^(١) له ، فَعَلَت الأصواتُ بالثناء عليه والدعاء له ، فخرج وجاء بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرَّكَ أذناها ، وحركها بخشبة فى يده ، فنطقت ورب الكعبة ! وإذا هى أحسنُ قَيِّنة^(٢) رأيتها قط ! فأطربنى حتى استخفنى من مجلسى ، فوثبت وجلست بين يديه ، وقلت : بأبى أنت وأمى ! ما هذه الدَّابة ؟ فلست أعرفها للأعراب ، وما أراها خلقت إلا قريباً ! فقال : هذا البرِّبط^(٣) . فقلت : بأبى أنت وأمى ! فما هذا الخليط الأسفل ؟ قال : الزَّير^(٤) . قلت : فالذى يليه ؟ قال : المثنى^(٥) .

قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث^(٦) . قلت : فالأعلى ؟ قال : البم^(٧) . فقلت : آمنت بالله أولاً ، وبك ثانياً ، وبالبربط ثالثاً ، وبالبم رابعاً .

قال الفضل : فضحك أبى والله حتى سقط ؛ وجعل ناهض يعجبُ من ضحكه !

ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث ؛ ويُطرف به إخوانه فيضحكون منه .

الأغانى ٣٣/١٢

(١) لا آبه له : لا أهتم به . (٢) القينة : الأمة المغنية .

(٣) البربط : العود معرب (بربط) - بكسر الراء - وهو آلة من المعازف .

(٤) الزير : من أوتار العود . (٥) المثنى : الذى يلى الزير .

(٦) المثلث : الذى يلى المثنى . (٧) البم : الذى يلى المثلث ، وهو أغلظ الأوتار .

خيال الأعراب

تكاذب أعرابيان ؛ فقال أحدهما : خرجت مرةً على فرس لي ، فإذا
بظلمة شديدة فيممتُّها^(١) حتى وصلت إليها ، فإذا قطعة من الليل لم
تنبه^(٢) ، فمازلتُ أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتُها ؛ فأنجابت^(٣) .

فقال الآخر : لقد رميتُ ظبيًّا مرةً بسهم ، فعدل الظبيُ يَمَنَةً ، فعدل
السهمُ خَلْفَهُ فتياسر^(٤) الظبيُ ، فتياسر السهمُ خَلْفَهُ ، ثم علا ، فعلا السهم
خلفه ، وانحدر فانحدرَ خلفه ، حتى أخذه !

الكامل ٢٥٧/١

(١) يممتها : تصدتها .
(٢) لم تنبه : لم تستيقظ .
(٣) أنجابت : انكشفت .
(٤) تياسر : سار يساراً .

اللس الظريف

قال أبو الهيثم :

اجتمع مالكُ بن الرِّيب وأبو حَرْدَبَة وشظاظ يومًا، فقالوا: تَعَالَوْا
نتحدث بأعجب ما عملناه في سرقتنا، فقال أبو حَرْدَبَة :
أعجبُ ما صنعتُ وأعجب ما سرقتُ أني صحبتُ رفقةً، فيها رجلٌ
على رَحْلٍ فأعجبني، فقلت لصاحبي : والله لأسرقنَّ رَحْلَهُ، ثم لا
رضيتُ أو أخذ عليه جعالة .

فرمقته حتى رأيته قد خَفَقَ برأسه فأخذت بخطام جملة ففدته،
وعدلت به عن الطريق، حتى إذا صيرته في مكان لا يغاث فيه إن استغاث
أَنَحْتُ البعير وصرعته، فأوثقتُ يديه ورجليه وقدتُ الجمل فغيبته، ثم
رجعتُ إلى الرفقة، وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون، فقلت :
مالكم ؟ فقالوا : صاحبُنا فقدناه؛ فقلت : أنا أعلمُ الناسَ بأثره؛
فجعلوا لي جعالة، فخرجت بهم أتبع الأثر حتى وقفوا عليه فقالوا :
مالك ؟ قال : لا أدري، نَعَسْتُ فانتبهتُ لخمسين فارسًا قد أخذوني؛
فقاتلتهم فغلبوني !

قال أبو حَرْدَبَة : فجعلت أضحك من كذبه، وأعطوني جعالتى،
وذهبوا بصاحبهم .

وأعجب ما سرقت : أنه مرَّ بي رجلٌ معه ناقة وجمل وهو على الناقة،
فقلت : لأخذتهما جميعًا، فجعلت أعارضه وقد رأيته قد خَفَقَ برأسه،

فدُرْتُ فأخذتُ الجمل فحللته وسقته، فغَيَّيته في القَصيم^(١)، ثم انتبه
فالتفت فلم يرَ جَمَلَه، فنزل وعقل راحلته، ومضى في طلب الجمل،
ودُرْتُ؛ فحللت عقال ناقتَه، وسقَّتها!

فقالوا لأبي حردبة: ويحك! فختام تكون هكذا! قال: اسكتوا
فكانكم بي قد ثَبْتُ، واشتريت فرساً وخرجتُ، فبينما أنا واقفٌ إذ
جاءني سهمٌ كأنه قطعة رشاء^(٢)، فوقع في نحري فمتُ شهيداً.

قال الراوى: فكان كذلك؛ تاب وقدم البصرة، فاشترى فرساً، وغزا
الروم فأصابه سهمٌ في نحره؛ فاستشهد!

ثم قالوا لشظاظ: أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت في لصوصيتك
ورأيت فيها!

فقال: نعم، كان فلان (رجلٌ من أهل البصرة) له بنت عم ذات مال
كثير، وهو وليها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوجَه، فحلف ألا
يزوجها من أحدٍ ضاراً لها، وكان يخطبها رجلٌ غنى من أهل البصرة،
فأبى أن يزوجهَا منه، ثم إن ولي الأمر حجج، حتى إذا كان بالدو^(٣) مات،
فدفن براية وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها.

قال شظاظ: وخرجت رفقةً من البصرة معهم بزٍّ ومتاع، فتبصرتهم
وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا، فلما ناموا بيتهم^(٤) وأخذت من متاعهم.
ثم إن القوم أخذوني وضربوني ضرباً شديداً وجردوني، وذلك في ليلة
قَرَّة^(٥)، وسلبوني كل قليل وكثير؛ فتركوني عرياناً وتماوت لهم، وارتحل
القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قَبْر الرجل، فأتيته فنزعت لوحاً
ثم احترفت فيه سرباً^(٦)؛ فدخلت فيه؛ ثم سدَدْتُ على باللوح، وقلت:
لعلّى الآن أدفا فأتبعهم.

(١) القصيم: الموضع الذي كانوا يسرقون فيه. (٢) الرشاء: رسن الدلو.

(٣) الدو: مكان على مرحلة من البصرة. (٤) بيت فلان بنى فلان: إذا أتاهم ليلاً فكبسهم.

(٥) ليلة قَرَّة: باردة. (٦) السرب: بيت في الأرض.

ومر الرجلُ الذى تزوج بالمرأة فى الرُّفقة . فمر بالقبر الذى أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزلن إلى قبر فلان ، حتى أنظر هل يحمى الآن فلانة !

قال شظاظ : فعرفتُ صوته فقلعت اللوح ، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر ، وقلتُ : بلى ورب الكعبة لأحمينها ، فوقع والله مغشياً عليه لا يتحرك ولا يعقل فجلستُ على راحلته ، وعليها كل أداة وثياب ونقد كان معه ، ثم وجهتها قَصْدَ مطلع الشمس هارباً من الناس فنجوتُ بها ؛ فكنتُ بعد ذلك أسمعهم يحدثُ الناس بالبصرة ويحلفُ لهم أن الميتَ الذى كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره ، والناسُ يعجبون منه ؛ فعاقلُهم يكذِّبه ، والأحمق منهم يصدقه ، وأنا أعرف القصةَ فأضحك منهم كالمتعجب !

قالوا : فزدنا . قال : فأنا أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا : إني لأمشى فى الطريق أبتغى شيئاً أسرقهُ فلا والله ما وجدتُ شيئاً ، وإذا أنا بشجرة ينام من تحتها الركبان فى مكان ليس فيه ظلٌ غيرها ، وإذا أنا برجل يسير على حمار له ، فقلتُ له : أسمع ! قال : نعم . قلتُ : إن المقيلاً الذى تريد أن تقبله يُخسَفُ بالدواب فيه ، فاحذره . فلم يلتفت إلى قولى ، ورمقته حتى إذا نام أقبلتُ على حماره فاستقته ، حتى إذا برزتُ به قطعت طَرَفَ ذنبه وأذنيه ، وأخذتُ الحمار فخبأته ، وأبصرته حين استيقظ من نومه ، فقام يطلب الحمار ويَقْفُو أثره ؛ فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طَرَفَ ذنبه وأذنيه ، فقال : لعمري لقد حُدِّرْتُ لو نفعنى الحذر ؛ واستمر هارباً خوف أن يخسف به . فأخذتُ جميع ما بقى من رحله فحملته على الحمار !

الأغاني ١٦٣/١٩

الرجل النباح

قال أبو الحسن : كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدين حتى تَوَارَى من غُرْمائه ، ولزِمَ منزله ، فأتاه غريمٌ عليه شيءٌ يسيرٌ فتلَطَّفَ حتى وصل إليه فقال له : مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَنَا ذَلَّلْتُكَ عَلَى حيلةٍ تصيرُ بها إِلَى الظهور والسلامة من غُرْمائك ؟ قال : أَقْضِيكَ حَقَّكَ وَأَزِيدُكَ مِمَّا عِنْدِي مِمَّا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي . فتوثَّقَ منه بِالْإِيْمَانِ ، فقال له : غَدًا قَبْلَ الصَّلَاةِ مُرْ خَادِمَكَ يَكْنُسُ بِأَبْكَ وَفَنَاءَكَ ، ويرشُ وَيَسْطِ عَلَى دِكَانِكَ حُصْرًا ، وَيُضَعُ لَكَ مُتَّكَأً ، ثُمَّ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ يَمِينِكَ وَيَسْلَمُ تَتَبَّحَ لَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى النَّبَاحِ أَحَدًا كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَلَوْ كَلِمَكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِكَ أَوْ خَدَمِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ غَرِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الْوَالِي ، فَإِذَا كَلِمَكَ فَانْبَحْ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيدَهُ أَوْ غَيْرَهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا أَيْقَنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ جَدُّ لَمْ يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَكَ عَارِضٌ مِنْ مَسٍّ فَيُخْلِي عَنْكَ .

ففعل ، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلم عليه ؛ فَنَبَحَ فِي وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ مَرَّ آخِرُ ففعلَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَسَامَعَ غُرْمَاؤُهُ ؛ فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، ثُمَّ آخِرٌ وَآخِرٌ ؛ فَتَعَلَّقُوا بِهِ فَرَفَعُوهُ إِلَى الْوَالِي ؛ فَسَأَلَهُ الْوَالِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَرَفَعَهُ مَعَهُمْ إِلَى الْقَاضِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ أَيَّامًا ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْعِيُونَ . فَمَلَكَ نَفْسَهُ وَجَعَلَ لَا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ سِوَى النَّبَاحِ .

فلما رأى القاضى ذلك أمر بإخراجه ، ووضع العيونَ فى منزله ،
وجعل لا يَنْطق بحرف إلا النباح ، فلما تقرر ذلك عند القاضى أمر غرماءَه
بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لَمَم ؛ فمكثَ ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذى كان علّمه الحيلة أتاه متقاضياً لعدته ، فلما كلمه
جعل لا يزيده على النباح ! فقال له : ويلك يا فلان ! وعلىّ أيضاً ! وأنا
علمتك هذه الحيلة ! فجعل لا يزيده على النباح ، فلما يئس منه انصرف
غير آمل فيما يطالبه به .

الحيوان ٦٢/٢

رأس الديك

قال دُعبل : أقمنا يوماً عند سَهْل بن هارون، فأطْلنا الحديث حتى اضطرَّه الجوعُ إلى أن دَعَا بغدائه، فَأتى بصَفْحَةٍ عُدْمِلِيَّةٍ^(١)، فيها مَرَقُ لحم ديك عاس^(٢) هرم، ليس قبلها ولا بعدها غيرها، لا تَحْزُ فيه السكين، ولا تُؤثِّر فيه الأضراس.

فاطَّلَعَ في القَصْعَةِ، وقلب بصره فيها؛ فأخذ قطعة خُبْز يابس؛ فقلَّب بها جميع ما في الصَفْحَةِ ففَقَدَ الرأس؛ فبقي مُطْرَقاً ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، وقال: أين الرأس؟ قال: رميتُ به، قال: ولم؟ قال: ما ظننتُ أنك تأكله، ولا تسألُ عنه! قال: ولأى شيء ظننتُ ذلك؟ فوالله إني لأمقتُ من يرمى برجله؛ فكيف من يرمى برأسه!

والرأس رئيس، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيحُ الديك، ولولا صوته ما أريدَ، وفيه عُرْفُه الذي يُتَبَرَّكُ به، وفيه عينُه التي يُضْرَبُ بها المثل؛ فيقال: «شَرابُ كَعِينِ الدِّيكِ»، ودماغه عجبٌ لوجع الكَلْيَةِ، ولن ترى عظماً قط أهدش من عظم رأسه؛ فإن كان من نُبلٍ أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله!

أوما علمت أنه خيرٌ من طَرَفِ الجناح ومن الساق والعنق! انظر أين هو! قال: والله ما أدرى أين هو، رميتُ به؛ قال: لكني أدرى أنك رميتَ به في بطنك، والله حسبك!

عيون الأخبار ٢/٢٥٩

(٢) العاسي: الذي أسن حتى جف وصلب.

(١) عدملية: قديمة.

المتنبئ الخريف

تَبَّأَ رَجُلٌ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ :
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ لَهُ مَعْجَزَاتٌ وَبَرَاهِينُ . قَالَ : وَمَا بَرَاهِينُهُ ؟ قَالَ : أَضْرَمْتُ
 لَهُ نَارًا ، وَأَلْقَيْتُ فِيهَا ؛ فَصَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَنَحْنُ نُوْقِدُكَ نَارًا ،
 وَنُنْظِرُكَ فِيهَا ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَمْنَا بِكَ . قَالَ : أُرِيدُ
 وَاحِدَةً أَخْفَ مِنْ هَذِهِ . قَالَ : فَبِرَاهِيمِ مُوسَى ! قَالَ : وَمَا بَرَاهِينُهُ ؟ قَالَ :
 أَلْقَيْتُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ! وَضَرَبْتُ الْبَحْرَ بِهَا فَانْفَلَقَ ! وَأَدْخَلْتُ يَدَهُ
 فِي جَيْبِهِ فَأَخْرَجَهَا بَيْضَاءَ ، قَالَ : وَهَذِهِ عَلَى أَصْعَبُ مِنَ الْأُولَى ! قَالَ :
 فَبِرَاهِيمِ عِيسَى ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : إِحْيَاءُ الْمَوْتَى ! قَالَ : مَكَانَكَ قَدْ
 وَصَلْتَ ! أَنَا أَضْرِبُ رُقْبَةَ الْقَاضِي يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ ، وَأَحْيِيهِ لَكُمْ السَّاعَةَ !
 فَقَالَ يَحْيَى : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ وَصَدَّقَ !

المستطرف ٢/٢٤٣

دون كيشوت

كان لأبي حية النُميرى سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق، كان يسميه «لُعَابُ المنيّة»، فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال: أشرفتُ عليه ليلة وقد انتَضَاهُ؛ وهو واقفٌ بباب بيت فى داره، قد سمع فيه حسًا، وهو يقول: أيها المغترُّ بنا، المجترئ علينا، بشس والله ما اخترتَ لنفسك! خيرٌ قليل، وسيف صقيل «لُعَابُ المنيّة» الذى سمعتَ به، مشهورة صَوْلته، لا تُخَافُ نَبُوته، اخرجْ بالعفو عنك، لا أدخل العقوبة عليك! إني والله إن أدع قَيْسًا تملأ الفضاء عليك خَيْلاً وَرَجُلًا، سبحان الله! ما أَكْثَرَهَا وَأَطْيَبَهَا والله ما أنتَ ببعيد من تابعها، والرسوب فى تيار لُجَّتِها.

وهبت ريح ففتحت الباب، فخرج كلبٌ فارئِدٌ وَجْهُهُ، وشَغَرَ^(١) برجليه، وتبادرت إليه نساء الحى فقلن: يا أبا حية، لِيُفْرَخْ رَوْعُكَ^(٢) إثمًا هو كلب، فجلس وهو يقول: الحمد لله مَسَخَكَ كلبًا، وكفانى حربًا.

الأغاني ٦١/١

(٢) ليفرخ روعك: لينكشف عنك فزعك.

(١) شَغَرَ: رفع إحدى رجليه.

عالم الأقوال

قال الجاحظ : حدثني محمد بن يسير عن وال كان بفارس قال : بينا هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب جُهد^(١) ، إذ نَجَم^(٢) شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه^(٣) ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنت ، ثم أقبل على كاتبه فقال . أعطه عشرة آلاف درهم ؛ ففرح الشاعر فرحاً قد يُستطار^(٤) له .

فلما رأى حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفاً .

فكاد الفرخ يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت - جعلت فداك - رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتنى في الجائزة . وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه

(٢) نجم : ظهر .

(١) أى احتجب عن الناس ما أمكنه الاحتجاب .

(٤) يستطار له : يدع منه .

(٣) قرظه : مدحه .

شيئاً؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق؛ إنما هذا رجل سرّنا بكلام وسرّزناه بكلام؛ هو حين زعم أنى أحسن من القمر، وأشد من الأسد، وأن لسانى أقطع من السيف، وأن أمرى أنفذ من السنان، جعل فى يدي من هذا شيئاً أرجع به إلى شىء؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه قد سرّنا حين كذب لنا. فنحن أيضاً نسرّه بالقول، ونأمر له بالجوائز، وإن كان كذباً؛ فيكون كذب بكذب، وقول بقول. فأما أن يكون كذب بصدق، وقول بفعل، فهذا هو الخسران الذى ما سمعتُ به!

البخلاء ٥٩/١

تلاعب لفظي

إن ابن المدبر إذا مدحه شاعر فلم يرضَ شعره قال لغلامه : امض به
سجد الجامع ، فلا تفارقه حتى يصلّيَ مائة ركعة ! ثم خله .

حاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين ، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن
لسلام البصري ، فاستأذن في النشيد ، فقال : قد عرفت الشرط !
نعم ! وأنشده :

دنا في أبي حسن مديحاً	كما بالمدح يُتَجَعُ ^(١) الولاةُ
قلنا : أكرمُ الثقلين طراً	ومن كَفَّاهُ دجلةُ والفراتُ ^(٢)
الوا : يَقْبَلُ المَدْحَاتِ لكن	جوائزه عليهن الصَّلَاةُ
لمتُ لهم : وما تُغْنِي صَلَاتِي	عيالي ، إنما الشأنُ الزكاةُ
أمر لي بكسر الصَّاد منها	فتصبح لي الصَّلَاةُ هي الصَّلَاتُ

سحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هذا؟ قال : من قول أبي
طائي :

الحمام فإن كسرت عيافة^(٣) من حائهن فلهنَّ حمام^(٤)

حسن صلبته .

زهر الآداب ١٨١/٢

جمع فلاناً : أتاها يطلب معروفه . (٢) الثقلان : الإنس والجن .
ت الطير عيافة : زجرتها ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها فتسعد أو تشاءم .
مام : الموت .

الغاز وحلول

كان شَنْ رجلاً من دُهاة العرب وعقلائهم . وقال يوماً : والله لأطوفَنَّ حتى أجد امرأةً مثلى أتزوجُها . فبينما هو في بعض مسيره إذ واقفه رجلٌ في الطريق فسأله شَنْ : أين تريد؟ فقال : موضعٌ كذا - يريد القرية التي يقصدها شَنْ - فوافقه ، حتى إذا أخذا في مسيرهما قال له شَنْ : أتحمّلني أم أحملك؟ قال له الرجل : يا جاهل ، أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحمّلني؟ فسكت عنه شَنْ .

وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد استُحصد^(١) ؛ فقال شَنْ : أترى هذا الزرع أكل أم لا؟ فقال له الرجل : يا جاهل ؛ ترى بُنْتًا مستحصداً فتقول : أكل أم لا؟ فسكت عنه شَنْ .

حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة^(٢) ، فقال شَنْ : أترى صاحب هذا النعش حيّاً أم ميتاً؟ فقال له الرجل : ما رأيتُ أجْهَلَ منك ! ترى جنازة تسأل عنها ، أميّت صاحبُها أم حيٌّ؟

فسكت شَنْ وأراد مفارقتَه ؛ فأبى الرجل أن يتركَه حتى يصيرَ به إلى منزله فمضى معه : وكان للرجل بنتٌ يقال لها طَبْقة ؛ فلما دخل عليها أبوها سألتَه عن ضَيْفِه فأخبرها بمرافقته إياه ، وشكا إليها جهلَه . وحدثها بحديثه .

(٢) الجنازة : الميت على السرير .

(١) استُحصد : أن يحصد .

فقلت : يا أبت ، ما هذا بجاهل ! أما قوله : أتحمّلني أم أحملك ، فأراد
أتحدّثني أم أحدثك حتى نقطعَ طريقنا ، وأما قوله : أترى هذا الزرعَ أكل أم
لا ؟ فأراد : هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما قوله في الجنّازة ، فأراد :
هل تركَ عقباً يحياّ بهم ذكره أم لا !

فخرج الرجلُ فجلس إلى شنّ ؛ فحادثه ساعة ، ثم قال : أتحبُّ أن
أفسّر لك ما سألتني عنه ؟ قال : نعم . ففسّره . قال شنّ : ما هذا من
كلامك ، فأخبرني مَنْ صاحبه ؟ قال : ابنة لي .

فخطبها إليه ، فزوَّجه إياها ، وحملها إلى أهله . فلما رأوها قالوا :
وافق شنّ طبقة^(١) .

مجمع الأمثال ٢/٢١١

(١) فلذهبت مثلاً لكل اثنين متوافقين .

هاتف من الصحراء

قال القاضي يحيى بن أكثم: دخلت يوماً على هارون الرشيد، وهو مطرق مفكر، فقال لى: أتعرف قائل هذا البيت:

الخير أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص! فقال: أخبرنى عنه. فقال: يا أمير المؤمنين؛ حدث عبيد قال:

كنتُ فى بعض السنين حاجًا، فلما توسطت البادية فى شديد الحر سمعتُ ضجَّةً عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بأخرها، فسألتُ عن القصة، فقال لى رجل من القوم: تقدم ترما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشُجاع^(١) أسود فاغر فاه كالجدع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرغاء البعير؛ فهالنى أمره، وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً؛ ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلتُ: أفدى هذا العالم بنفسى، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة منه.

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفى، فلما رآنى قُربتُ منه سكّن، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعنى فيها، فلما رأى القربة فتح فاه، فجعلت فم القربة فى فيه، وصببت الماء كما يصب فى الإناء. فلما فرغت

(١) الشجاع: الذكر من الحيات.

القربة تسيب في الرمل ومضى ؛ فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا
عن غير سوء لحقنا ، ومضيينا لحجنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في منزلنا ذلك ، في ليلة مظلمة
مُدْلهمة ، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق ، فأخذتني
عيني ؛ فنمت مكاني ؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً ، وقد
ارتحلوا ، وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهد إلى ما أفعله ، وأخذتني
حيرة ، وجعلت أضطرب ، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى
شخصه يقول :

يأيها الشخص المضلُّ مركبُه ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكرُ منا تركبه وبكرُك الميمون حقاً تجنبه^(١)
حتى إذا ما الليل زال غيَّبه^(٢) عند الصباح في الفلا تسيبه^(٣)

فنظرت فإذا ببكر قائم عندي وبكرى إلى جانبي ، فأنخته وركبته ،
وجنبت بكرى ؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر
الفجر ، ووقف البكر ، فعلمت أن قد حان نزولي فتحولت إلى البكر ،
وقلت :

يأيها البكر قد أجميت من كَرَب ومن همومٍ تفضل المذلج الهادى
ألا فخبّرني بالله خالقنا من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميداً فقد بلغتنا منا بوركت من ذى سنام رائج غادى

(٢) الغيب : شدة سواد الليل .

(١) جنب البعير : قاده إلى جانبه .

(٣) سيب الشيء : تركه .

فالتفت البكر إلىّ، وهو يقول :
أنا الشجاعُ الذي أَلْفَيْتَنِي رَمَضًا والله يكشفُ ضرَّ الحائرِ الصَّادِ
فجَدْتُ بالماءِ لما ضَنَّ حَامِلُهُ نصفُ النهارِ على الرَّمضاءِ في الوادي
الخيرُ أبْقَى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أَخْبَثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنَّا لا يُمنُّ به لك الجميلُ علينا إنك البادي
فعجب الرشيْدُ من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكَتَبْتُ، وقال: لا
يضيع المعروف أين وُضِعَ !

الأغاني ٨٦/١٩

صحراء وغيب

خرج ركبٌ من ثَقِيفٍ إلى الشام، وفيهم أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ، فلما قَفَلُوا راجعين نزلوا مَنْزِلًا لِيَتَعَشَّوْا بَعْشَاءَ، إِذْ أَقْبَلَتْ عَظَايَةُ^(١) حَتَّى دَنَتْ مِنْهُمْ، فَحَصَبَهَا بَعْضُهُمْ بِشَيْءٍ فِي وَجْهِهَا، فَرَجَعَتْ، وَكَفَّتُوا^(٢) سَفَرَتَهُمْ، ثُمَّ قَامُوا يَرْحَلُونَ مُنْصِينَ، فَطَلَعَتْ عَلَيْهِمْ عَجُوزٌ مِنْ وَرَاءِ كَثِيبٍ مُقَابِلَ لَهُمْ تَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا، فَقَالَتْ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُطْعَمُوا رَجِيمَةً، الْجَارِيَةَ الْيَتِيمَةَ، الَّتِي جَاءَتْكُمْ عَشِيَّةَ الْقَالُوا: وَمَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا أُمُّ الْعَوَّامِ، إِمْتُ^(٣) مِنْذُ أَعْوَامٍ؛ أَمَا وَرَبُّ الْعِبَادِ، لَتَفْتَرُقَنَّ فِي الْبِلَادِ! وَضَرَبَتْ بَعْصَاهَا الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَتْ: بَطَّيْتُ إِيَابَهُمْ وَنَفَرْتُ رُكَابَهُمْ؛ فَوُثِبَ الْإِبِلُ كَأَنَّ عَلَى ذُرْوَةِ كُلِّ بَعِيرٍ مِنْهَا شَيْطَانًا، مَا يُمْلِكُ مِنْهَا شَيْءٌ، حَتَّى افْتَرَقَتْ فِي الْوَادِي.

قال الراوى: فجمعناها في آخر النهار من الغد ولم نكد، فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز، فضربت الأرض بعصاها، ثم قالت كقولها الأول، ففعلت الإبل كفعلها بالأمس، فلم نجتمعها إلا الغد عشية؛ فلما أنخناها لنرحلها أقبلت العجوز، ففعلت كفعلها في اليومين، ونفرت الأبل.

(١) العظاية: دوية ملساء، تشبه ساما أبرص، من طبعها أنها تمشى مشياً سريعاً ثم تقف.

(٢) كفت الشيء: ضم بعضه إلى بعض، والسفرة: ما ييسط تحت الخوان من جلد أو غيره.

(٣) أمت المرأة: إذا فقدت زوجها.

فقلنا لأُمِّيَّة: أينَ ما كنتَ تُخبرنا به عن نفسك؟ فقال: اذهبوا أنتم في طلب الإبل ودعُوني؛ فتوجهَ إلى ذلك الكُثيب الذي كانت العجوزُ تأتي منه حتى علاه، وهبط منه إلى وادٍ؛ فإذا فيه كنيسةٌ وقناديل، وإذا رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية مُضطجعٌ معترض على بابها؛ فلما رأى أُمِّيَّة قال: إنك لَمَتَّبوع، فمن أين يأتيك صاحبُك؟ قال: من أذنَى اليسرى؛ قال: فبأى الثياب يأمرك؟ قال: بالسَّواد؛ قال: هذا خطيب الجنِّ، كدت والله أن تكونَه ولم تفعل؛ إن صاحبَ النبوة يأتيه صاحبه من قَبْلِ أذنه اليمنى، ويأمره بلبس البياض، فما حاجتُك؟ فحدثه حديثَ العجوز؛ فقال: هي امرأةٌ يهودية من الجنِّ، هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لن تزال تصنعُ ذلك بكم حتى تُهلككم إن استطاعت.

فقال أُمِّيَّة: وما الحيلة؟ فقال: جمَّعوا ظَهركم^(١)؛ فإذا جاءتكُم ففعلت كما كانت تفعلُ فقولوا لها: «سَبِّع من فوق، وسَبِّع من أسفل، باسمك اللهم»! فلن تضركم.

فرجع أُمِّيَّةٌ إليهم وقد جمَّعوا الظَّهر؛ فلما أقبلت قال لها ما أمره به الشيخ، فلم تضرهم، فلما رأت الإبل لم تتحرَّك قالت: قد عرفتُ صاحبكم، وليبيِّضنَّ أعلاه، وليسودَّنَّ أسفله؛ فأصبح أُمِّيَّة وقد برِص في عذرايه واسودَّ أسفله.

فلما قدموا مكة ذكروا لهم هذا الحديث؛ فكان ذلك أولَ ما كتَبَ أهلُ مكة: «باسمك اللهم» في كتِّبهم!

الأخاخي ١٢٥/٤

(١) الظهر: الركاب التي تحمل عليها الأثقال في السفر.

عالم الجن

حدّث زياد بن النّضر الحارثي قال: كنا على غدير لنا في الجاهلية، ومعنا رجلٌ من الحَيِّ يقال له: عمرو بن مالك، معه بنية له شابة، على ظهرها دُؤابة، فقال لها أبوها: خذى هذه الصّحفة ثم ائتى الغدير، فجيئنا بشيء من مائه.

فانطلقت فواقفها عليه جانٌ فاختطفها، فذهب بها؛ فلما فقدناها نادى أبوها في الحَيِّ، فخرجنا على كل صَعْبٍ وذُلولٍ^(١)، وقصدنا كل شعبٍ^(٢) ونقب، فلم نجد لها أثراً؛ ومضت على ذلك السنون، حتى كان زمنُ عمر بن الخطاب، فإذا هي قد جاءت، وقد عفا^(٣) شَعْرُها وأظفارها، وتغيّرت حالها، فقال لها أبوها: أى بنية؛ أنى كنت؟ وقام إليها يقبلها، ويشم ريحها، فقالت: يا أبت؛ أتذكر ليّلة الغدير؟ قال: نعم! قالت: فإنه واقفنى عليه جان، فاختطفنى، فذهب بى، فلم أزل فيهم، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قومًا مشركين، أو غزاهم قوم مشركون، فجعل لله تبارك وتعالى نذرًا إن هم ظفروا بعدوهم أن يعتقنى ويردنى إلى أهلى فظفروا؛ فحملنى فأصبحتُ عندكم، وقد جعل بينى وبينه أمارَةً، إن احتجتُ إليه أن أولول بصوتى، فإنه يحضرنى.

(١) الصعب: الجمل العصى، والذلول: الجمل الهادئ.

(٢) الشعب: الطريق فى الجبل وسيل الماء فى بطن أرض، أو ما انفرج بين الجبلين.

(٣) عفا شعرها: كثرت وطال.

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها، وأصلح من شأنها، وزوجها رجلاً من أهله؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها فعيّرهما، وقال: يا مجنونة! واللّه إن نشأت إلا فى الجن.

فصاحت ووكولت بأعلى صوتها، فإذا هاتفٌ يهتف: يا معشر بنى الحارث؛ اجتمعوا وكونوا حيّاً كراماً، فاجتمعنا فقلنا: ما أنت - رحمك الله؟ فإننا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً! فقال: أنا راب^(١) فلانة، رعيّتها فى الجاهلية بحسبى؛ وصنّتها فى الإسلام بدينى، واللّه إن نلت منها محرماً قط! واستغاثت فى هذا الوقت، فحضرتُ فسألته عن أمرها، فزعمت أن زوجها عيّرَها بأنها كانت فينا، واللّه، لو كنت تقدمت إليه لفقأتُ عينيه! فقلنا: يا عبد الله؛ لك الحباء والجزاء والمكافأة! فقال: ذلك إليه (يعنى الزوج)!

فقامت إليه عجوز من الحمى، فقالت: أسألك عن شيء؛ فقال: سلى! قالت: إن لى بنيةً أصابتها حصبة^(٢)، فتمزّق رأسها، وقد أخذتها حُمى الربيع^(٣)؛ فهل لها من دواء؟ قال: نعم! اعمدى إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذى يكون على أفواه الأنهار، فخذى منه واحدة، فاجعليها فى سبعة ألوان عهن^(٤)، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها، وأبيضها وأكحلها وأزرقها، ثم أفتلى ذلك الصوف بأطراف أصابعك، ثم اعقديه على عضدك؛ ففعلت أمها ذلك، فكأنما نشطت من عقال!

المنتقى من أخبار الأصمعي ص ١٢

(١) راب: كافل. (٢) الحصبة: بثر يخرج بالجسد.

(٣) الربيع فى الحمى: أن تأخذ يوماً وتدع يومين، ثم تقيء فى اليوم الرابع.

(٤) العهن: الصوف.

عظيم في الحياة وفي الممات

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم ، فنزلوا قريباً منه ، فقام إليه رجل يقال له أبو الخَيْبَرى ، وجعل يركض برجله قُبْرَهُ ؛ ويقول : أفرنا ، فقال له بعضهم : ويلك ! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات ؟ قال : إن طياً تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرأه ، ثم أجئهم الليل ، فناموا .

فقام أبو الخَيْبَرى فرعاً ، وهو يقول : وارا حلتاه ! فقالوا له : مالك ؟ قال : أتانى حاتم فى النوم ، وعقر ناقتى بالسيف ؛ وأنا أنظر إليها ، ثم أنشدنى شعراً حفظته ، يقول فيه :

أبا الخَيْبَرى ، وأنت امرؤ	ظلومُ العشيرة شتأُمها
أتيتَ بصحبك تبغى القرى	لدى حُفرة قد صدّت ^(١) هامُها
أتبغى لى الدّم عند المبيت	وحولك طىٌّ وأنعامها
فلاناً لنشبع أضيفنا	وتأتى المطى فتعأمُها ^(٢)

فقاموا ، وإذا ناقة الرجل تكُوس^(٣) عقيراً ، فانتحروها وباتوا يأكلون ، وقالوا : قرأنا حاتم حياً وميتاً !

(١) صدت : صوتت . والهامة : طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتيل ، فلا يفتأ ينادى بشاره حتى يؤخذ به .

(٢) نعامها : نعلبها للضيوف (٣) تكوس : تتكوم .

وأردفوا صاحبهم ، وانطلقوا سائرين ، وإذا برجل راكب بعيراً وهو
يقود آخر ، قد لحقه ، وهو يقول : أيكم أبو الخَيْبَرِ؟ قال الرجل : أنا !
قال : فخذ هذا البعير ؛ أنا عدى بن حاتم ؛ جاءني حاتم اليوم فى النوم ،
وزعم أنه قراكم بناقتك ، وأمرنى أن أحملك ؛ فشأنك والبعير !
ودفعه إليهم وانصرف .

بلوغ الأدب ١ / ٧٤

فن السياسة

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين^(١)، فأراد أن يغتال به الأسد، فأتاه ذات يوم، فقال له: يا أبا الحارث، الغنيمة الباردة! شحمة رأيتها بين لصبين، فكرهت أن أدنو منها، وأحببت أن تتولى ذلك أنت!

فهلّم لأريكها!

فانطلق به حتى جاء به إليها؛ فقال: دونك يا أبا الحارث! فذهب الأسد ليدخل، فضاق به المكان؛ فقال له الثعلب: ادفع برأسك! فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر.

ثم أقبل الثعلب يخدش خورأنه^(٢)؛ فقال الأسد: ما تصنع يا ثعلبة^(٣)؟ قال: أريد لأستنقذك؛ قال: فمن قبل الرأس إذن! فقال الثعلب: لا أحب تخديش وجه الصاحب!

مجمع الأمثال ١٧١/٢

(٢) المراد المؤخرة.

(١) اللصب: الشعب الصغير في الجبل.

(٣) ثعلبة: لقب الثعلب.

حكايا آخر زمن

زعموا أن أرنبا التقطت ثمرة؛ فاختلسها الشعب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب؛ فقال الأرنب: يا أبا الحسل^(١)! قال: «سميعاً دعوت». قالت: أتيناك لنحتكم إليك. قال: «عادلاً حكمتماً». قالت: فاخرج إلينا. قال: «فى بيته يؤتى الحكم»، قالت: إنى وجدت ثمرة، قال: «حلوة فكلها».

قالت: فاختلسها الشعب. قال: «لنفسه بغى الخير»، قالت: فلطمته. قال: «بحقك أخذت»، قالت: فلطمنى. قال: «حراً انتصر»، قالت: فاقض بيننا؛ قال: «قد قضيت»!

مجمع الأمثال ١٧/٢

(١) كنية الضب، والحسل: ولد الضب.

مكر الخواجات

لما مات بعضُ الخلفاء، اختلفت الروم، واجتمعت ملوكها؛ فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكنا الغرة^(١) منهم والوثبة عليهم، وعَقَدُوا لذلك المشورات، وترجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر.

وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرضُ الرأى عليه؛ فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً؛ فسألوه عن علة ذلك؛ فقال: فى غد أخبركم.

فلما أصبحوا أتوا إليه، وقالوا: قد وعدتنا أن نخبرنا فى هذا اليوم بالرأى فيما عوَلْنَا عليه؛ فقال: سمعاً وطاعة! وأمر بإحضار كليّن عظيمين، كان قد أعدّهما؛ ثم حَرَّشَ^(٢) بينهما، وحَرَّضَ كل واحد منهما على الآخر؛ فتواثبا وتهارشا^(٣)، حتى سالت دماؤهما.

فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده، وأرسل على الكليّن ذئباً كان قد أعدّه لذلك، فلما أبصره تركا ما كانا فيه، وتألّفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه.

المستطرف ص ١

(١) الغرة: الغفلة. (٢) التحريش: الإغراء.

(٣) المهارشة: تحريش الكلاب بعضها على بعض.

ندم وسهر

تفرقت حمير على ملكها حسن، وخالفت أمره؛ لسوء سيرته فيهم،
ومالوا إلى أخيه عمرو، وحملوه على قتل حسان، وأشاروا عليه بذلك،
ورغبوه في الملك ووعدوه حسن الطاعة والمؤازرة، فنهاه ذو رعين من بنى
حمير عن قتل أخيه، وعلم أنه إن قتل أخاه ندم ونقر عنه النوم،
وانتفضت عليه أموره، وأنه سيعاقب الذي أشار عليه بذلك، ويعرف
غشهم له.

فلما رأى ذو رعين أنه لا يقبل ذلك منه وخشى العواقب قال:

ألا من يشتري سهرًا بنوم سعيد من يبيت قري عين
فلما حمير غدرت وخانت فمعدرة الإله لدى رعين

ثم كتب البيتين في صحيفة، وختم عليها بخاتم عمرو، وقال: هذه
وديعة لى عندك إلى أن أطلبها منك؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خازنه،
وأمره برفعها إلى الخزانة، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها:

فلما قتل أخاه، وجلس مكانه في الملك منعه النوم، وسلط عليه
السهر؛ فلما اشتد ذلك عليه، لم يدع باليمن طبيبًا ولا كاهنًا، ولا
منجمًا، ولا عرافًا ولا عائفًا، إلا جمعهم، ثم أخبرهم بقصته، وشكا
إليهم ما به. فقالوا له ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم منه على نحو ما قتلنا
أخاك إلا أصابه السهر، ومنعه النوم!

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من أَقْيَالِ حَمِيرٍ، فقتلهم وأفناهم.

فلما وصل إلى ذِي رُعَيْنِ قال له: أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ إِنَّ لِي عِنْدَكَ بَرَاءةً مِمَّا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ بِي. قال: وما براءتُكَ وأمانُكَ؟ قال: مُرْ خَازِنَكَ أَنْ يُخْرِجَ الصَّحِيفَةَ الَّتِي اسْتَوْدَعْتُكَهَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا.

فأمر خَازِنَهُ فَأَخْرَجَهَا، فنظر إلى خاتمه عليها ثم فضَّها، فلماذا فيها البَيِّتان:

* أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بَنُومٌ ^(١) *

ثم قال له: أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ قَدْ نَهَيْتَكَ عَنْ قَتْلِ أَخِيكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ أَصَابَكَ الَّذِي قَدْ أَصَابَكَ، فَكَتَبْتُ هَذَيْنِ الْبَيِّتَيْنِ بَرَاءَةً لِي عِنْدَكَ مِمَّا عَلِمْتُ أَنَّكَ تَصْنَعُ بِي أَشَارَ عَلَيْكَ بِقَتْلِ أَخِيكَ! فقبل ذلك منه وعفا عنه، وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ.

مجمع الأمثال ٦٥/١

(١) ذهب مثلاً، ويضرب لمن غمط النعمة وكره العافية.

سعد الموعود

خرج نُجَيعُ اليربوعي يوماً إلى الصيد، فعرض له حمارٌ وحش فاتّبعه، حتى دفع إلى أكمة، فإذا برجل أعمى أسود قاعد في أطمار، بين يديه ذهب وفضة ودُرٌّ وياقوت. فدنا منه نُجَيع؛ فتناول منها بعضها، فلم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاها؛ فقال: يا هذا؛ ما الذي بين يديك؟ وكيف تستطيعُ حملَه؟ ألكَ هو أم لغيرك فإني أعجب مما أرى، أجواد أنت فتجود لنا، أم بخيل فأعذرک؟ فقال الأعمى: كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين، وهو سعد بن خَشْرَم، فأتني بسعد يعطك ما تشاء.

فانطلق نُجَيعُ مسرعاً، قد استطير فواده، حتى وصل إلى مَحَلَّتِه^(١)، ودخل خِباءه، فوضع رأسه، ونام لما به من الغم؛ لا يدرى من سعد!

فأتاه في منامه آت؛ فقال له: يا نُجَيع؛ إن سَعْدَ بن خَشْرَم في حى مُحَلَّم من ولد دُهل بن شيبان؛ فخرج وسأل عن بني مُحَلَّم، ثم سأل عن خَشْرَم، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خِباءه، فحياه نُجَيع، فردّ عليه، فقال له نُجَيع: من أنت؟ قال: خَشْرَمُ بن شماس. قال: وأين ابنك؟ قال: خرج في طلب نُجَيع اليربوعي؟ وذلك أن آتياً أتاه في منامه، فحدّثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به إلا نُجَيع، فضرب لنجّيح بطن فرسه، وهو يقول:

(١) المحلة: منزل القوم.

أَيْطَلِبْنِي مَنْ قَدْ عَنَّانِي طَلَابُهُ فَيَا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ
 أَتَيْتَ بَنِي يَرْبُوعَ تَبْغِي لِقَاءَنَا وَقَدْ جِئْتُكَ كَيْ أَلْقَاكَ - حَيَّ مُحَلِّمٍ
 فلما دنا من محلته استقبل سعدًا، فقال له: أيها الراكب؛ هل لقيت
 سعدًا في بني يربوع؟ فقال: أنا سعد؛ فهل تدلني على نجيح؟ قال: أنا
 لنجيح! وحدته بالحديث؛ ثم قال: الدالُّ على الخير كفاعله.
 فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما،
 وترك المال، فأخذه سعد كله، فقال له لنجيح: يا سعد؛ قاسمني، فقال
 له: اطو عن مالي كشحًا وأبى أن يعطيه شيئًا، فانتضى لنجيح سيفه،
 وجعل يضربه، حتى برد؛ فلما وقع قتيلاً تحولَّ الرجل الحافظ للمال
 سغلا^(١)، وأعاد المال إلى مكانه؛ فلما رأى لنجيح ذلك ولَّى هاربًا إلى
 قومه!

المحاسن والأضداد ص ٦٩

(١) السغلا: الغول أو ساحرة الجن.

لعنة الحذاء

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطنبُوري، وكان له مَدَّاسٌ، وهو يَلْبَسُهُ سَبْعَ سَنِينَ، وكان كلما تقطَّع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثَّقَلِ، وصار الناسُ يضربون به المثل.

فاتفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج، فقال له سمسار: يا أبا القاسم، قد قَدِم إلينا اليوم تاجر من حَلَب، ومعه حملٌ زجاج مذهبٌ قد كَسَدَ، فاشتره منه، وأنا أبيعه لك بعد هذه المدة؛ فَتَكْسِب به المثلَ مثلين! فمضى واشتراه بستين ديناراً.

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين؛ فصادفه سمسار آخر، وقال له: يا أبا القاسم؛ قد قدم إلينا اليوم من نصيبين^(١) تاجرٌ، ومعه ماء ورْد، ولعجَلَة سفره، يمكن أن تشتريه منه رخيصةً، وأنا أبيعه لك فيما بعد، بأقرب مدة؛ فَتَكْسِب به المثلَ مثلين!

فمضى أبو القاسم، واشتراه أيضاً بستين ديناراً أخرى، وملاً به الزجاج المذهب وحمله، وجاء به فوضعه على رَفٍّ من رفوف بيته في الصُّدْر!

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يغتسل؛ فقال له بعض أصدقائه: يا أبا القاسم؛ أشتهى أن تغير مداسك هذا؛ فإنه في غاية الشناعة! وأنت ذو مال بحمد الله! فقال له أبو القاسم: الحقُّ معك؛ فالسَّمْع والطاعة.

(١) اسم مكان.

ثم إنه خرج من الحمام، ولبس ثيابه، فرأى بجانبه مداسه مداساً آخر جديداً؛ فظن أن الرجل من كرمه اشتراه له؛ فلبسه، ومضى إلى بيته!

وكان ذلك المداسُ الجديدُ للقاضي، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحمام، ووضع مداسه هناك، ودخل يستحم!

فلما خرج فتش عن مداسه؛ فلم يجدّه؛ فقال: أمن لبس حذائي لم يترك عوضه شيئاً؟ ففتشوا؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم! فعرفوه، لأنه كان يضرب به المثل!

فأرسل القاضي خدّمه، فكبّسوا بيته، فوجدوا مداس القاضي عنده؛ فأحضره القاضي، وضربه تأديباً له، وحبسه مدة، وغرمه بعض المال وأطلقه! فخرج أبو القاسم من الحبس، وأخذ حذاءه، وهو غضبان عليه، ومضى إلى دجلة، فألقاه فيها؛ فغاص في الماء!

فأتى بعض الصيادين ورمى شبكته، فطلع فيها! فلما رآه الصياد عرفه، وظن أنه وقع منه في دجلة! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم؛ فلم يجده! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت، فرماه منها إلى البيت، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج، فوقع، وتكسّر الزجاج وتبدّد ماء الورد!

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك، فعرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح ييكي، وقال: وافقركم! أفقرني هذا المداس الملعون!

ثم إنه قام، ليحفّر له في الليل حفرة، ويدفنه فيها، ويرتاح منه؛ فسمع الجيران حسّ الحفر؛ فظنوا أن أحداً ينقب عليهم؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم؛ فأرسل إليه، وأحضره، وقال له: كيف تستحل أن تنقب على جيرانك حائطهم؟ وحبسه، ولم يطلقه، حتى غرم بعض المال!

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدَان من المَدَاس ، وحمله إلى كنيف الخان ، ورماه فيه ، فسَدَّ قَصْبَةُ الكَنيف ؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة الكريهة ! وبحثوا عن السبب ؛ فوجدوا مَدَاسًا فتأملوه ؛ فاذا هو مَدَاسُ أَبِي القَاسِم ! فحملوه إلى الوالى ، وأخبروه بما وقع ، فأحضره الوالى ووبخه وحبسه ، وقال له : عليك تصليح الكنيف ! فغرم جُمْلَةُ مال ، وأخذ منه الوالى مقدار ما غرم تأديبًا له وأطلقه .

فخرج أبو القاسم والمَدَاسُ معه ، وقال : وهو مغتاذ منه : واللّه ما عدتُ أفارقُ هذا المَدَاس !

ثم إنه غسله وجعله على سطح بيته حتى يجف ؛ فرآه كلب ؛ فظنه رمة فحمله وعبر به إلى سطح آخر ؛ فسقط من الكلب على رأس رجل ، فألّه وجرحه جرحًا بليغًا فنظروا وفتشوا لمن المَدَاس ، فعرفوا أنه لأبى القاسم !

فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛ فألزمه بالعوض ، والقيام بلوازم المجروح مُدَّةَ مرضه فنقدَ عند ذلك جميعُ ما كان له ، ولم يبق عنده شيء !

ثم إن أبا القاسم أخذ المَدَاس ، ومضى به إلى القاضى ، وقال له : أريد من مولانا القاضى أن يكتب بينى وبين هذا المَدَاس مبارأة شرعية على أنه ليس منى ولستُ منه ! وأن كلاً منا برىء من صاحبه ، وأنه مهما يفعله هذا المَدَاس لا أوأخذ أنا به ! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه !

فضحك القاضى منه ووصله ومضى !

مجانى الأدب ص ٢٣٢/٣

عود على بدء

ألف أبو العلاء صاعدٌ كتابَ الفصوص ، واتفق أن أبا العلاء دفعه -
حين كَمَل - لـ غلام له يحمله بين يديه ، وعبر النهر - نهرَ قرطبة - فخانت
الغلامَ رجلُهُ ؛ فسقط في النهر هو والكتاب !

فقال في ذلك بعض الشعراء بيتاً بحضرة المنصور هو :

قد غاص في البحر كتاب الفصوصُ وهكذا كل ثَقِيلٍ يغوصُ
فضحك المنصور والحاضرون .

فلم يَرُحْ ذلك صاعداً ، ولا هالاً ، وقال مرتجلاً مجيئاً :

عاد إلى مَعْدِنه إنما توجد في قَعْرِ البحار الفصوصُ !

المجانى ١٥٢/٣

الباب الثانى قراءة عصرية

- ١ -

كانت البداية مع قصة تحت عنوان «إذن بالدخول» ، وكانت النهاية مع قصة أخيرة تحت عنوان «عود على بدء» ، وبين البداية والنهاية تتناثر مجموعة من القصص ، تنتمي إلى عصور مختلفة ، وإلى أنواع مختلفة ، ولكنها جميعا تهدف إلى جانب المتعة والتسلية .

- ٢ -

وكان العنوان فى البداية أو فى النهاية متعمدا ، يشير بذلك إلى أن نظام الفن القصصى بمفهومه العربى القديم . لا يحتاج إلى مثل تلك الرابطة المعاصرة ، التى تنتقل من حدث إلى حدث ، وكل حدث يلى الآخر عن طريق الضرورة أو الاحتمال ، وتتأزر الأحداث على بؤرة ارتكاز ، تكون هى المحور الرئيسى الذى تصب فيه جميع الأحداث .

والرابطة المعاصرة تقوم على عقلانية تامة ، تعتمد على توالى الأحداث بطريقة منطقية ، تقوم على السبب والمسبب ، وتضرب إلى تراث إغريقى ، يعود إلى مفهوم الوحدة العضوية كما حددها أرسطو فى كتابه حول الشعر .

ثم انتقلت إلى العصر الكلاسيكى الأوروبى ، ولم تقف عند مفهوم القصيدة ، بل تعدته إلى ما يسمونه فى أوروبا بالقصة التقليدية ، التى تعتمد ، سواء كانت رواية أو قصة قصيرة ، على نوع من تطور الحدث ، وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة ، حتى يصل إلى الذروة ثم يأخذ فى الهبوط وفى خط تنازلى ، حتى تأتى النهاية ، لتكون تلقائية ووليدة

الأحداث السابقة، التى غالباً ما تعتمد على خط تاريخى تطورى، يتحرك بطريقة النظام الشمسى، من الصباح إلى الظهيرة وحتى الغروب.

لا يحتاج الفن القصصى بمفهومه العربى القديم، إلى مثل هذه الرابطة الصارمة والدقيقة، لأنه يعتمد على نوع من الرابطة خفيف، قد يكون عنواناً فى البداية يوحى بالدخول، وعنواناً فى النهاية يوحى بالعودة، وبين العنوانين تنضام مجموعة من القصص تختلف فيما بينها من حالة الجدل إلى حالة الهزل، ولكنها فى مجموعها تهدف إلى جانب المتعة والتسلية.

وتصبح الرابطة حينئذ هى مجرد خيط يضم داخله مجموعة من الأشياء، أو هى مثل «العقد الفريد» الذى يضم مجموعة من الجواهر، مختلفة فى ألوانها وبريقها، ولكنها فى مجموعها تخطف الأبصار.

وأضح «العقد الفريد» بين علامتى تنصيص، لأشير بذلك إلى أن هذا النظام لا يقتصر على الفن القصصى وحده، وإنما يتعداه إلى منهج التأليف فى الكتب العربية القديمة.

وهو منهج يضم مجموعة من الأخبار والمعارف، يختلط فيها الجد بالهزل، والتاريخ بالأسطورة، والشعر بالنحو، والغناء والحكمة، وحديث الأطعمة والأشربة مع الأدعية المأثورة.

وهو منهج لا يأتى نتيجة ضعف فى التنسيق، أو ضمور فى الملكة العقلية، بل يتعمده المؤلف كنوع من الإبداع الأدبى، فهو لا يريد أن يكتفى بنقل المعلومة، أو بالتحليل المنطقى، ولكنه يريد أن يمتع القارئ وهو ينتقل من خبر إلى خبر.

وقد أكد القدامى هذا المنهج، واستحسنوه فى مقدمات كتبهم، أكده

المبرد والجاحظ وأبو حيان التوحيدى وأبو الفرج الأصفهاني وابن عبد ربه، وكل هذا يدل على أن هذا المنهج لم يأت نتيجة قصور أو اعتباطاً، بل جاء عن تعمد ووعى، لكى ينشط القارئ، وتنوع أحاسيسه وهو ينتقل من الشيء إلى غيره.

ولم يكن هذا النظام الذى يقوم على الجمع والضم، قصراً على الجنس القصصى، أو على منهج التأليف الأدبى، بل تعداه إلى بنية القصيدة العربية، وهى بنية تقوم على مجموعة من الموضوعات، كل موضوع مستقل عن الآخر، ولا يجمع بينها سوى رابطة خارجية، تتمثل فى وحدة الوزن والقافية.

وقد وقفت عند هذه الظاهرة مرتين. مرة سنة ١٩٦٥ فى كتاب «قصص العشاق الشرية» فقد لاحظت هذه الظاهرة ممتدة فى الشعر وفى القصة وفى منهج التأليف الأدبى، وفسرتها بأنها تعود إلى طبيعة الثقافة التى تعتمد على المجالس وحديث الرواة، وكان هذا التفسير يحمل يومها نبرة من الإدانة الثقافية لا تتحرى الدقة والتنسيق، فى مقابل ثقافة أخرى تعتمد على القراءة والمراجعة.

وكانت المرة الثانية سنة ١٩٧٩ فى كتاب «الوسطية العربية»، وقد فسرته هذه الظاهرة بمفهوم الوسطية العربية، التى تقوم على التجاور بين الأشياء دون أن يطغى أحدها على الآخر، وهو مفهوم يختلف عن وسطية أرسطو التى ركز على نقطة وسطى تمثل محاور ارتكاز، ثم تلغى الطرفين.

الوسطية العربية أنتجت ماسميته بالوحدة التركيبية، أما وسطية أرسطو فقد أنتجت الوحدة العضوية، وكل وحدة لا تلغى الأخرى ولا

تفضلها، لأن كلا منهما تعود إلى بنية حضارية مختلفة، وتعكس نظرة اجتماعية وطبقية، تختلف من واقع إلى واقع، كما يختلف نظام القبيلة الذى يقوم على التساوى بين الأفراد كما تتساوى حبات المسبحة، عن نظام جمهورية أفلاطون التى تركز على شيء أعلى، تخدمه بقية الطوائف والتشكيلات الأخرى.

- ٣ -

وحين بدأت الحضارة الأوروبية تقلل من صرامة النزعة العقلية، لقيت فكرة الوحدة العضوية تمرداً اتخذ مظاهر مختلفة.

ولن نفصل فى هذه المظاهر فقد تكفل ذلك كتابى «القصة القصيرة فى الستينات»، ولكن هذه المرة نقف عند شيء جديد ظهر عند نقاد مابعد الحداثة، ويمكن أن تبينه خلال مصطلح «الانقطاعية».

فإن الانقطاعية discontinuity كما حددها دافيد لودج فى كتابه «أطر الكتابة الحديثة» The Modes of Modern Writings، تعنى الخروج على النظام العقلى الصارم، والذى يقوم على فكرة السببية، وتتوالى فيه الأحداث وفقاً للضرورة المنطقية.

وتبنى الانقطاعية فكرة أن يتكون العمل الأدبى من مجموعة فقرات لا رابط بينها، ينتقل فيها الذهن من شيء إلى شيء مختلف، جذلان وهو يقفز ويرتد من فكرة إلى فكرة، كالكرة الصغيرة فى ماكينة اللعب، تلتقى بأضواء وإشارات تأتى من هنا وهناك.

ويوضح لودج ذلك من خلال كتابات لونارد ميشيل، فإن قصصه تتكون من مجموعة Cluster، أى من فقرات قصيرة (حكاية - تعليق - قصيدة - نكتة - اقتباس)، وكل فقرة تستقل عن الأخرى.

إن واحدة من تلك المجموعة العنقودية عند ميشيل ، تأتي تحت عنوان «سوف أنقذهم لو استطعت» ، وتدور حول موضوع الموت والحياة ، وتتكون من عدة أقسام هي :

١ - ملاحظة مبدئية ، وهى عبارة عن كوميديا تسخر من حياة اليهود فى أمريكا .

٢ - مسائل مشكوك فيها وهى تدور حول قصة بورجز عن كاتب يهودى أعدمه الجستابو ، وقد منحه الإله وقتا كافيا ، بين إطلاق النار وموته ، لكى ينهى عمله الفنى .

٣ - الموضوع فى نقطة صغيرة وهو عبارة عن ذكريات جد الراوى .

٤ - ظروف عسكرية وهى عبارة عن لحظة من حياة ماركس كتبها أحد الملوك بروح معادية .

٥ - حياة عمل وهى قصة عم الراوى ، الذى هو المؤلف .

٦ - صخور لا تظللها الأشجار ، اقتباس من بايرون يدور حول سجين مدان .

٧ - أغنية من ثلاثة سطور من الغناء الشعبى الروسى .

٨ - النهود : تجربة مبكرة للعم فى أوروبا .

٩ - صياح الأطفال عن المسيح وهيلاديك وكافكا والعشاء الأخير .

١٠ - هيرافليدس ، هيجل ، جياكومتى ، نيتشة ، وردسورث ، ستيفين ، وكلها تدور حول مسائل فلسفية .

١١ - الغربة وهى تدور حول صلة ماركس بالمسيحية .

١٢- خطاب من لورد بيرون ، يذكر فيه أنه شاهد ثلاث جرائم انتهت بحكم الإعدام .

١٣- المخلوق النوعي ، مقالة نقدية عن الأدب .

١٤- دستوفسكي ، قدر قليل من قصة للدستوفسكي عن رجل محكوم عليه بالإعدام وقد أرجئ تنفيذ الحكم .

١٥- الليلة التي أصبحت فيها ماركسيا ، قطعة ساخرة بقلم مرتد عن مذهبه .

١٦- الخاتمة .

ولكن الانقطاعية تصل إلى حد الفوضى ، التي تتمرد على كل نظام ، ويمكن أن نبين ذلك من خلال مصطلحين آخرين ، يمثلان أيضاً عند لودج خصائص مابعد الحداثة ، وهما العشوائية ، والتجاوز .

فالعشوائية randomness تعني أن فكرة الانقطاعية متمثلة في مجموعة الفقرات المستقلة ، إنما تتم بطريقة عشوائية ، مساوية تماماً للذهن البشري الذي تتم فيه التغييرات بطريقة ميكانيكية بعيداً عن التنسيق والسببية ، وكلما كان العمل الأدبي مكوناً من مجموعة فقرات مستقلة ، ومتجاورة بطريقة عشوائية ، كان أقرب إلى طبيعة ذهن البشري ، فيحس بالتجدد والنشاط ، ومن هنا يحبذ الكاتب «بورديو» فكرة القص واللصق ، فيقص مجموعة من النصوص المختلفة ، ومن بينها نصه الخاص به ، ثم يلصقها بطريقة عشوائية . ويلجأ جونسون إلى طريقة مشابهة ، فيصدر سنة ١٩٦٩ روايته «المنكوبون» في صفحات سهلة التغير «Loose Leaf» ، والقارئ مطالب بأن يغير ويعدل في وضع الصفحات حتى ينتج نصه الخاص .

أما التجاوز «excess» فهو يعنى الخروج على الحدود، والانتقال من ميدان إلى آخر دون صلة، والذي يصل عند كاتب مثل ريتشارد بروتيجان إلى نوع غريب من التشبيهات، ينفصل عن المجرى القصصى العام، ويحفر له مجرى خاصا، ولا يعود أبداً إلى المجرى الأصلي، مثل «كانت الشمس مثل قطعة نقود معدنية، ضخمة من فئة الخمسين سنتا، قد صب عليها شخص ما جاز الكيوسين، ثم أشعلها بثقاب، ووضعها فى يدي وقال: هيا احملها حتى أذهب إلى الخارج وأشتري الصحيفة، ولكنه لم يعد. وكانت الفصول تحتضن الشواهد الخشبية مثل طباخ و سنان يقطعق بيضا فى وعاء، مواجه لمحطة سكة حديد. وكان جسدى مثل طيور تجلس على سلك تليفون، يهتز بنداات العالم، وتلمسه السحب فى رفق.

وكانت عيناه مثل وتر من أوتار «الهارب». وكان الضوء خلف الأشجار، يبدو كأنه يدلف إلى مخزن للبضائع، والجدول يبدو وكأنه كشاك التليفونات، ممتدة فى صف واحد، بسقوف عالية، ترجع إلى العصر الفيكتورى، أبوابها مقفلة، وكانت الشوارع بيضاء وجافة، وكان حادثه تصادم قد وقعت بين مقبرة وسيارة نقل محملة بزكائب الدقيق.

وإذا كانت الوحدة التركيبية قد تخلصت من الرابطة العقلية الصارمة، فإنها لم تقع فى العشوائية أو التجاوز، لأنها التزمت برابطة من نوع جديد ومناسب، تهدف إلى مقاومة الملل والرتابة، وتنشيط القارئ عن طريق الانتقال به من موضوع إلى موضوع. وهى رابطة مرنة تجمع بين الشيء وغيره، كعياب اليمانى، أو كالعقد الفريد. أو كالحبل الذى يضم مجموعة من العصى، مختلفة الأحجام والأنواع والألوان.

هى إذن رابطة ليست عشوائية أو تتجاوز حدودها، فإن لها نظاماً ولكنه مرن، ويقوم على فكرة براعة الاستهلال، وحسن التخلص، وحسن المقطع، وغير ذلك من مصطلحات شرحناها من قبل فى كتاب «الوسطية العربية» (٢/ ١٦٤)، وتقرب فى عمومها من ميكانيكية الذهن البشرى، التى تقوم على قفزات غير مترابطة منطقياً، ولكن دون أن تقع فى الفوضى، لأن الأدب فى غايته نظام حتى لما يبدو أنه فوضى.

- ٤ -

وفى ضوء الوحدة التركيبية، يتخذ مفهوم العنوان وضعاً مختلفاً عنه فى ضوء الوحدة العضوية، فهو لا يشير إلى لب القصيدة، أو جوهر القصة، أو العقدة، أو محور الارتكاز، أو الموضوع الرئيسى فى الكتاب. لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد لب ولا عقدة ولا محور ارتكاز ولا شيء رئيسى، فالوحدة التركيبية تضم أشياء متجاوزة ومتساوية وعلى قدر واحد من الأهمية، ومن هنا يأتى العنوان عرضاً، أو يمثل شيئاً واحداً، أو لا يلزم بجميع جوانب الموضوع.

إن كلمة «سورة» فى القرآن الكريم، تشير فى بعض معانيها إلى ذلك السور الذى يحيط بالمدينة، ويجمع داخله الشيء وغيره، ومن هنا يأتى «عنوان» السورة ليشير إلى شيء واحد من مجموعة أشياء تضمها السورة، وكلها فى غاية الأهمية. إن عنوان «سورة البقرة» يشير فقط إلى قصة بقرة بنى إسرائيل، التى وردت فى هذه السورة مع قصص أخرى وعبر كثيرة.

ولم يكن العنوان قديماً ذا بال . فقد كانت القصيدة التقليدية ترد بلا عنوان ، وكان الديوان يحمل اسم صاحبه ، فيقال ديوان عنترة ، أو ديوان امرئ القيس ، ولم يأخذ عنوان قصيدة ، أو عنوان موضوع ، إلا في العصر الحديث ، مع غلبة مفهوم الوحدة العضوية .

وحين خفّت صرامة الوحدة العضوية في العالم الأوروبي ، بدأ مفهوم العنوان يتغير ، واتخذ هذا التغير صورة واضحة في الفن التشكيلي ، الذي ثار على العنوان ، واعتبره تلخيصاً للعمل في بطاقة صغيرة . ومن هنا جاءت لوحات كثيرة بلا عناوين ، أو تحت أرقام ، وأحياناً تحت مفردات كبيرة لا تفيد شيئاً محدداً ، مثل تكوين أو تشكيل ، وغير ذلك من عناوين تخلص العمل الأدبي من أن يصبح جملة أو بطاقة أو ماهية محددة .

- ٥ -

قد اقتحمنا منذ الأسطر الأولى البنية الفنية للعمل القصصي عند العرب ، وهنا التحدى الأكبر فمنذ أن استرد التراث القصصي اعتباره في الفترة الأخيرة ، أخذ النقاد يحومون حول هذه البنية ولا يتوغلون . قد يتحدثون عن عصور هذا التراث ، أو عن أنواعه ، وقد يفسرون بعض النماذج ويشرحون مضامينها ، وفي أحسن الأقوال قد يتحدثون في عبارات كبيرة ومطاطة ، عن أن هذا النموذج جميل يهز القارئ ، أو أن هذا النموذج الآخر يعبر عن عصره خير تعبير ، ثم يقفون في الغالب الأعم عند ذلك ولا يوغلون .

فلنا إن اقتحام بنية العمل الفنى هو التحدى الأكبر ، لأن البنية الفنية هى الامتحان الحقيقى للأجناس الأدبية ، فيما إذا كانت تملك خصوصية فنية تميزها بين الآخرين ، وتتيح لها عملية الاستمرار ، أو أنها مجرد أحاديث ، تلجأ فى أحسن تقدير إلى عناصر بدائية ، وأثواب قصصية تشبه الأغلفة المفضضة والمذهبة .

ومن هنا كان اهتمامنا منذ الأسطر الأولى باقتحام البنية الفنية ، ومن هنا سيظل اهتمامنا فى الأسطر التالية على هذا الجانب «لا يتعداه» .

- ٦ -

وهدفنا من ذلك أمران : أولهما اكتشاف بنية هذا الجنس الأدبى من داخله ، وتحديد مصطلحاته الخاصة به ، ومعرفة وظيفة كل مصطلح داخل البنية الفنية الخاصة .

وهذا الهدف فى غاية الأهمية ، لأنه سيحدد وظيفة كل مصطلح داخل جنسه الأدبى ، ومن خلال لغة مستقاة من واقعه ، وليست مستقاة فى أجناس وافدة ، لها لغتها ومسيرتها الخاصة .

وكل هذا سوف يجعل النظرة تتغير ، ويجعل الحكم يتغير ، بل ربما يكون على العكس تماما . إن مصطلحات مثل الاندماج والدروة والصراع وعمق الشخصية ، وغير ذلك مما نقلنا عن مسيرة القصة الأوروبية التى نحاكى الواقع ، ربما تتغير مفاهيمها ، بل ربما لا نحتاج إليها البتة ونحن نتحدث عن التراث القصصى عند العرب .

- ٧ -

أما الهدف الثانى فيتلخص فى أننا قد نجد أثناء مسيرتنا ، أن كثيرا من مصطلحات الفن القصصى عند العرب ، يمكن أن تفضى بنا إلى التراث المعاصر ، وقد لمسنا ذلك فى الصفحات السابقة ، ونحن نتحدث عن مصطلحات مثل الانقطاعية أو العشوائية أو التجاوز ، أو ونحن نتحدث عن مفهوم العنوان فى الفن التشكيلى ، وسوف نلمسه فى مواطن أخرى قادمة ، ولكن بشرط ضرورى ، وهو أن تكون البداية من هذا التراث ، وسنجد أنفسنا فى النهاية فى معانقة التراث الإنسانى .

وأقول «سنجد» باستخدام حرف السين الذى يدل هنا على القرب والتأكيد ، لأننى واثق من النتائج ، بمعنى أن هذا التراث يحمل بذور حياته ، ويعكس بنية حضارية ، قوية ومتفتحة ، لا تقف عند أرضها ، وتلوك مشاعرها ، بل هى ترنو نحو الآخر ، ولو كان عبر بحر الظلمات ، وتطلب المعرفة ولو فى الصين .

وفرق أن تكون البداية من التراث ، لنلتقى فوق أرضنا مع الآخر ، وبين أن تكون البداية من أرض الآخر .

البداية فى الحلقة الأولى سوف تجعل البصمة واضحة ، وسوف تظل هذه البصمة كالعلامة المسجلة ، يعرفها من يراها حتى لو كان فى بلاد غريبة .

أما البداية من عند الآخر فسوف تجعلك محملا بوزر الآخرين . عرفنا الخط العربى والفن التجريدى فى العصر الحديث عبر الآخرين ، أو كما تقول المجالات العربية فى عناوينها «الشرق فى عيون الغرب» فكانت النتيجة فنا مظلم ، يعكس أزمة حضارة .

وعرفنا شهر زاد عن طريق الغربيين ، فكانت النتيجة جدلا عقيما بين
الفن والشر .

وعرفنا العبث عن طريق كافكا وبيكيت وجويس ، فكانت النتيجة
عقدا وأمراضا وإحباطا .

وتختلف الحال لو كانت البداية فى أرضنا .

سيكون الخط معبرا عن تلقائية حضارة ورؤيتها .

وستكون شهر زاد صورة للشرق فى جاذبيته وحسيته .

وربما لن نصل إلى العبث أبدا ، فى ظل حضارة تحصن إنسانها ضد
العبث .

- ٨ -

وستواصل مسيرتنا مع البنية الفنية للجنس القصصى عند العرب ،
منطلقين هذه المرة من الأسطر الأخيرة فى الفقرة الأولى ، والتى تقول :

«وبين البداية والنهاية تتناثر مجموعة من القصص ، تنتمى إلى عصور
مختلفة ، وإلى أنواع مختلفة ، ولكنها جميعا تهدف إلى جانب المتعة
والتسلية» .

فقد تناثرت هذه القصص فى الكتب الأدبية ، وصورت مجالس
الغناء ، والمطارحات الغرامية ، واختلط فيها الشعر والنثر ، والإلغاز
والذكاء ، ولماحية الجوارى ، وجمال القيان ، والتلاعب اللفظى ،
والمحسنات الزخرفية .

ومن هنا كان يقصدها الناس من أجل هذه المتعة، ويلتمسونها عند تلك الشخصيات التي تجيد توصيل هذه المتعة بوسائلها الخاصة، ويقربونهم، ويصلونهم، ويغفرون لهم الجفوة والهفوة في سبيل تلك الهزة الجمالية.

يجتمع القوم في متنزه بالعقيق، في لحظة يتخففون فيها من أثقال الحياة، ويضربون في أحاديث جميل وكثير، فتسمو بهم إلى عالم الفن وحده، ويأخذ يونس الكاتب في حديث قد سمعه عن أعرابي، ويمهد له بأنه يأكل كل الأحاديث، وهو يعنى بذلك أن حديثه قد تهيأ له من قوة التأثير، ما ينسى القوم كل ما سمعوه في يومهم هذا، ويروى قصة «سليمى والعاشق»، وهى تدور حول شاب يعانى فى عشقه وينشد الأشعار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. وكان فى القوم ابن عائشة، وكان عنيدا لا يغنى إذا طلب منه أحد ذلك، ولكن قوة تأثير هذه القصة دفعته إلى الغناء، والناس يسمعون ويستمتعون بالقصة والشعر والغناء.

وكان ناهض بن ثومة الكلابى رجلا موهوبا، يجيد فن القص والوصف، وقصة «الأعرابي الظريف» تكشف عن وصفه لحفلة غناء أمام قثم الهاشمى، بطريقة ساخرة تهكمية، ومن منظور أعرابي يصف باستغراب ما يشاهده فى حفلة غناء فى مجتمع حضرى، وقثم مأخوذ بالقصة وبالوصف، وهو فى كل مناسبة يقرب هذا الأعرابي، ويغفر له ما فيه من جفوة وغلظة، وهو يستعيد هذا الحديث أمام أصدقائه، والأعرابي يقص بصورة فيها استغراب، وقثم فى كل مرة يضحك ويسعد، لا من أجل ما فيها من أحداث جارية، فأحداثها قليلة وعادية، ولكن من أجل ما تحويه من مواقف ساخرة، ومن تعليقات ظريفة.

ومن هنا لم يفتن أحد الولاة فى قصة «عالم الأقوال» إلى تلك الوحدة الجمالية، وظنها مجرد أقوال، ولم يرتفع إلى المجال الفنى للتشبيحات، وظنها نوعاً من الكذب لا يفيد شيئاً، فأخذ يجازى الشاعر كذباً بكذب، وهو يمينه العطاء ولا يقدم شيئاً، وحينما سئل فى ذلك أجاب بأنه كذب بكذب وقول بقول.

ومن هنا يهتز وال آخر بالتلاعب اللفظى، الذى أورده الشاعر فى القصة التى تحمل هذا العنوان، ويدرك هذا الوالى قيمة اللحظة الفنية، ويستمتع بها، ويستظرف شاعره ويحسن صلته.

- ٩ -

والقاص فى هذه الأحاديث يقف عند المتعة الفنية، ولا يغوص فى تحليل نفسى عميق، ولا فى إسقاطات تاريخية، ولا فى مرجعية فلسفية. إنه يقف عند السطح، عند حد المتعة الجمالية، التى يقصدها لذاتها، ولا تساويها عنده متعة أخرى نفسية ولا اجتماعية ولا تاريخية.

وهنا نجد أنفسنا من حيث لا نشعر، فى مواجهة مقياس عصرى، تحدث عنه نقاد الحداثة، ويعنون به أن العمل الأدبى يكمن سره فى بنيته الفنية، لا فيما يحمله من إسقاطات تنتهك النص، وتبحث عن قيمة أخرى خارج النص.

وتدعو «سونتاچ» فى كتابها «مقاومة التفسيرية» Anti interpretation إلى يقظة الحواس وهى تتعامل مع النص الأدبى، وترى أن وظيفة النقد إنما تكمن فى إثارة تلك الحواس، وتجعلها تسمع أكثر، وتبصر أكثر، وتذوق أكثر، وتشم أكثر.

وهى من أجل ذلك تطرح مصطلحات نقدية ، تخلص الأدب من مرجعيته الزمانية والمكانية ، التى اكتسبها بتأثير من نظرية المحاكاة ، وهى نظرية تفترض نموذجاً خارج العمل الأدبى ، ويقاس العمل الأدبى ، لا ببنية الفنية التى تلوح داخل نسيجه اللغوى ، وإنما يقاس بمدى اقترابه من هذا النموذج وقدرته على محاكاته .

ويهمنا هنا مصطلح «الشفافية» ، الذى يعنى أن العمل الأدبى شفاف ومسطح ، ظاهره كداخله ، لا يحمل وراءه عوالم أخرى . وقيمة النقد تكمن فى وصف تلك الشفافية من الخارج ، كهذا الجوهرى الذى يصف ياقوتة لسيدة حسناء تجيد التعامل مع الجواهر ، أو كهذا الصيرفى الذى يميز بين العملة الجيدة والرديئة كما يقول القدماء .

وتلك المتعة فى حد ذاتها ، أو هذا السطح الأملس الذى لا يشفى عن شىء خارجه ، وتكمن أهميته فى بريقه ولمعانه - هى ما تهدف إليه القصة العربية كما وردت فى الأغاني وفى العقد الفريد وفى غيرهما ، هى تقف عند الحواس ، وتوقظ السمع والبصر حتى الشم والذوق واللمس ، ويعيش القارئ فى حديث الأطعمة والملبوسات والغناء ومناظر الجوارى وهو يتذوق أكثر ، ويشم أكثر ، ويبصر أكثر ، ويسمع أكثر ، وهو فى كل ذلك يستمتع بطريقة أفضل .

- ١٠ -

وهذه المتعة هى عالم مستقل فى ذاته ، له قوانينه الخاصة التى تختلف عن عالم الخير أو عالم العدل . قد يصف الفنان الشىء المحرم كالخمر ، ونقول إنه أجاد ولا نقيم عليه حد الشرب ، وقد يمدح آخر شخصاً مستبداً

كهتلر، ونقول إنه أجاد دون أن نحاكمه من خلال محكمة العدل الدولية، وقد يدعو مصلح اجتماعي إلى الفضائل وقد ينجح ولكننا لا نستطيع أن نصفه في عالم الجمال إلا إذا صاغ دعوته في صورة فنية، وقد ينشر حاكم العدل ويقيم دستوراً منطقياً، ولكننا لا نستطيع أن ندرج هذا الدستور في عالم الجمال.

ونجد داخل هذه المجموعة أمثلة من العلماء والفقهاء، يقعون تحت سيطرة عالم الفن، فلا ينكرون ذلك على أنفسهم، ولا ينكر عليهم أحد تصرفاتهم، التي قد تبدو بمنطق آخر غير منطق الفن شاذة وغريبة.

فهذا عبد الله بن جعفر في قصة «إذن الدخول» يسمع غناء، فيدخل على القوم دون إذن، وحين يراجعونه في ذلك يجيبهم إجابة طريفة تعني أن عالم الفن ملك مباح للجميع، وتنتهي القصة بجو من السعادة والحب والسلام.

وهذا هو عطاء بن أبي رباح في قصة «سلطان الفن» يسمع غناء لابن سريج، فيأخذه عالم الفن، ويصيبه باضطراب شديد، ويحلف على ألا يكلم أحداً يعرفه إلا بهذا اللحن، وكان كل من يسأله عن الحلال والحرام، يضرب إحدى يديه بالأخرى، وينشد هذا الشعر، وتنتهي القصة باعتراف عطاء، وهو الفقيه الورع، بسلطان عالم الفن، ويعزم على ألا يعرض بعدها أبداً لابن سريج.

ومثل هذه الأخبار تتردد كثيراً في الكتب القديمة، ولم يعترض عليها أحد، ولم تطبق عليها مقاييس الحلال والحرام، فقد كانوا يتقبلونها بمنطق هذا العالم، الذي يجوز فيه ما لا يجوز في غيره.

- ١١ -

قلنا من قبل إن هذه القصص تقف عند سطح الأشياء ولا توغل ، ومن هنا تأتى أهمية المقياس النقدى الذى يتعامل مع الأشياء بخفة ولا يغوص .

وقد انعكس هذا المقياس على كل المظاهر الفنية التى يتبينها الدارس فى بنية العمل القصصى عند العرب ، فالصراع لا يحتد ، والخيال لا يشتت ، والرؤية لا تجمح ، والفكاهة لا تجرح ، وتأتى النهاية ثمرة تلقائية لكل هذه المظاهر .

- ١٢ -

الفكاهة فى القصص العربى تتم بخفة ودون تجريح ، قد تكون فى إلقاء بعض القاذورات ، أو الزجاج المكسور ، أو التعثر فى مياه راكدة ، أو غير ذلك مما يهدف إلى تقويم الشخصية بطريقة حانية .

وقد حفلت هذه المجموعة بنماذج من هذا النوع ، مثل : اللص الظريف ، دون كيشوت ، الرجل النباح .

وقصة «لعنة الحذاء» تمثل هذا النوع خير تمثيل ، فهى تريد أن تعدل فى سلوك أبى القاسم ، الذى احتفظ بحذائه سنين طويلة ، يرقعه ويصلحه حتى صار مضرب المثل ، وهى من أجل ذلك تلجأ إلى طريقة خفيفة لا تجهز على الشخصية ، فتورد نوعاً من المواقف الخفيفة يحاول فيها أن يتخلص أبو القاسم من حذائه ، وهو كل مرة يصيبه قدر من لعنة هذا الحذاء الغريب ، حتى ضاق بالحذاء وذهب إلى الوالى وقال له بنبرة ساخرة : أريد من مولانا القاضى أن يكتب بينى وبين هذا المداس مبارأة

شرعية، على أنه ليس منى ولست منه، وأن كلا منا برىء من صاحبه، وأنه مهما يفعله هذا المداس لا أوأخذ أنا به.

وتنتهى القصة عند هذا الحد دون أن تكون مريرة تجهز على الشخصية، إنها تصل إلى هدفها دون ضحايا، وإن لعنة الحذاء لم تكن مثل لعنة القدر فى بعض القصص الحديثة، تنصب على صاحبها دون رحمة ومن غير انتظار، إنها تنتهى نهاية سعيدة فقد ضحك القاضى من حديث أبى القاسم ووصله، وهى نهاية تتناسب مع هدف القصة وجوها العام، وتكنيكها الذى يرمى إلى نوع من السخرية، لا يوغل فى لحم الضحية.

وتأتى شخصية الأعرابى نموذجاً لهذا النوع من القصص الفكاهى، هى تتعرض للسخرية وتثير الضحك، ولكنها فى نهاية الأمر تبدو شخصية محبوبة، يعترف الناس بذكائها وخفة روحها، ويبحثون عنها، ويتسقطون أخبارها.

وقد حفلت هذه المجموعة بأمثلة من القصص، التى تدور حول الأعرابى. وكل قصة تمثل موقفاً فكاهياً خفيفاً، يترخص فيه الناس، ويتقبلون بعض المفردات والتعليقات التى لا يتقبلونها فى موضع آخر، لأنها هنا تأتى من باب الطرافة، وتخضع لعالم الفن، دون أن تطبق عليها قواعد التحريم.

فقصة «الأعرابى الظريف» تمثل موقفاً فكاهياً بين المهدي وأحد الأعراب، وعلى الرغم من أن الأعرابى قد تجاوز حده فى بعض عباراته، إلا أن المهدي يغفر له ذلك بل ويصله، لأنه يدرك أنه هنا فى موقف فكاهى لا تطبق فيه قواعد العقاب والثواب.

والأعرابي في هذه القصص يعبر عن الإنسان العربى فى ظل حضارته القديمة، فهو يبدو واثقا من نفسه، محبوبا من الجميع، يجدون فيه أنفسهم، ويبحثون فيه عن أصولهم، التى تركوها وراءهم فى الصحراء ولايزالون يحنون إليها .

وهو من هذه الناحية يختلف كثيرا عن شخصية الصعيدى فى العصر الحديث، التى انتشرت فى مصر، ثم انتقلت منها بسرعة إلى العالم العربى، وأصبحت نموذجا تتردد نكته فى كل مكان، وترد فى الأفلام والمسرحيات، يشاهدها العرب وهم يضحكون من صورة الصعيدى وقد وقع فى المصيدة، ولكنه ضحك من نوع جارح، يعكس الفرق بين موقفين، موقف الواصل من نفسه فىسخر بحب وتسامح لكى يبنى، وموقف المهتز الذى يسخر بتجريح وقسوة .

إن الصعيدى هو صورة للإنسان العربى فى العصر الحديث، وهذا هو السر وراء انتشار أفلامه ومسرحياته فى كل أرجاء العالم العربى، فهى تتخذ من الصعيدى ستارا دون أن تدري، لكى تسخر من ذاتها وتخرج نفسها . إن ما يتعرض له الصعيدى فى الأفلام حين يسافر إلى مصر، من العاهرات والسماصرة والتجار والمحتالين، هو عين ما يتعرض له العرب فى كل أنحاء العالم، فالعرب هم صعايدة العالم، وقد وضعوا فى كون يمزق ضحيته بشراة، ومادنا أمام جزار وضحية، فكل القيم لابد أن تسقط، ويكون هم النكته أن تعبر عن قسوة الجزار وعن التشفى من الضحية . ويضحك الجميع من الصعيدى أو الخروف، ويحسون بعد النكته أو الفيلم أو المسرحية بالتطهر، ولكنه تطهر مزيف لا يبنى، ولا يواجه الحقائق، إنه فرق كبير بين من يحنو على أصوله كما هى الحال فى

النادرة عن الأعرابي ، وبين من يمزق أصوله كما هي الحال في النكتة عن الصعیدی ، إنه فرق يعكس موقفا حضاريا دقيقا بين إنسان ، يثق في نفسه وحضارته ، فيسخر لكى يبنى ، وإنسان آخر يشك في نفسه وحضارته ، فيسخر لكى يهدم .

والصعیدی أيضاً يندمج في اللعبة ولا يشور عليها ، ويقال إن أغلب النكت من إنتاج الصعايدة ، لأنه يعرف بذكائه العملى أنها لعبة ، كل فيها يتخفى عن نفسه ، فلماذا هو لا يتخفى بين الرؤوس ، فلن نخسر شيئاً ، على الأقل هو يمثل الحروف الأكبر ، في لعبة لا تتفطن لجزاها .

- ١٣ -

والصراع فى القصص العربى القديم يتم بخفة أيضاً ، فلا يتوغل المؤلف فى مصادمات ، ولا يثير الجدل ووجع الدماغ ، فكل شىء يتم على السطح ، وأقصى ما لمجده من أنواع الصراع هو ما تمثله قصة «ندم وسهر» ، فقد أغراه القوم بقتل أخيه ، ثم يحس بالندم ، ويتأبى عليه النوم . وهنا موقف يغرى بالصراع الداخلى ، ولكن القاص لا يوغل فى ذلك ، ولا يتابع الحركة النفسية ، إذ سرعان ما يترك البطل داخله ، ويسعى إلى الانتقام ممن نصحوه بقتل أخيه . وتأبى القصة إلا أن تنتهى تلك النهاية السعيدة ، حتى لو كانت من أجل شخص واحد ، وهو ذو رُعين ، فقد كان هو الوحيد الذى نصحه بالآ يفعل ، فلا يقتل شخص أخاه إلا ويعز عليه النوم ، فيكافئه الملك ويقر به .

وأيضاً قصة «مأساة عاشق» لا يتوغل صاحبها فى صراع نفسى ، فقد

فتك السبع بمحبوبته ، وبدلاً من أن يخلد إلى ذاته ، ويعايش صراعه الداخلي ، فإنه يسعى إلى الانتقام ، ويستل سيفه ، ويقتل السبع ، ثم ينشد شعراً يعبر عن نفسه وقد تطهرت به .

كان المشاهد في المسرح الإغريقي يجلس متفرجاً على البطل ، وهو يصارع قدراً عنيداً ، وكان لابد أن يهزم ، فالنبوءة تقول بذلك ، والقدر قوة رهيبة باطشة لا ترحم من يتحداها ، وهى فى الوقت نفسه قوة معادية ، لا تسير وفق رغبة الإنسان ، ومن هنا فلا بد أن يكون هناك صراع وصدام ، وأن ينتهى ذلك بهزيمة الإنسان ، ويجلس المتفرج فيشاهد مصير أوديب ، الذى أراد أن يتحدى القدر فأصيب بالعجز ، ويخرج فوق خشبة المسرح تجره ابنته أنتيجونا وهما يبكيان ، ويريق المتفرج دموعه أيضاً ، ويحس بالتطهير داخل بوابة المسرح .

أما الإنسان العربى فهو لا يجلس متفرجاً ، ولا يعايش الصراع داخله ، ولا يأسى على حاله ويذرف دموع الخوف والإشفاق ، إنه يحدث «فعلاً» ، ويسعى إلى الانتقام على أرض الواقع ، ويحس بالتطهير الحقيقى .

ومن هنا فإن العدو الذى يحاربه الإنسان العربى لا يتمثل فى قوة ميتافيزيقية غير مرئية ، لا يستطيع هزيمتها ، وتكون نهايته الانكسار مهما جد ، بل هو يتمثل فى قوة محددة ، فى خطر خارجى يستفز إمكاناته ويسعى إلى الانتقام منه ، وغالباً ما ينتصر .

أما الصدام مع القدر فهو لا يتناسب مع تراث الإنسان العربى ، فضلاً عن أن نهايته عبثية تؤدي حتماً إلى هزيمة البطل .

فترات الإنسان العربى يجعله دائما يرضى بنصيبه ، ولا يتطلع إلى ما هو من حق غيره ، إن قصة «سعد الموعود» فى هذه المجموعة ، تعنى أن نصيب الإنسان يأتية مهما طال الزمن ، فهناك حارس على مال ابن حشرم ، يحميه له حتى يأتية وعده ، فيتسلمه بلا حسد ولا تباغض ، وقد حاول نجيح أن يغتصب ما ليس من نصيبه ، فكان جزاؤه سعادة من الجن جعلته يولى هاربا .

والقدر ليس معاديا للإنسان العربى ، بل هو يمنحه قوة يتحدى بها الجميع ، ويترك له منافذ الاحتمال مفتوحة ، حتى إذا ما وقع الأمر على غير ما يهواه ، فإنه لا يسقط كما يسقط أبطال الإغريق ، بل يبدأ من جديد ، ويساعد قدره على مواصلة الطريق ، فهو قد أدى ما عليه فى حدود قدراته ، أما ما عدا ذلك فهو من الأمور الغيبية ، التى لا يملك إزاءها إلا التسليم ، وإلا مواصلة الطريق .

إن للإنسان عالمه وللمطلق عالمه ، فإذا ما تقبل الإنسان هذه الحقيقة ، فإن الله سوف يتولاه بعنايته ، أما إذا تمرد عليها وحاول أن يسرق النار ، فلا بد أن يتحطم .

فنحن لسنا فى كون يقوم على علاقة عدا ، عالم ينصب الشراك ويتنقم ، وآخر يسرق النار ويتحدى ، نحن فى كون تحوطه عناية الله ، ونحمى البشر من أن يقعوا فى الشراك .

- ١٤ -

أما الخيال عند العرب فهو خيال قريب المأتى ، يعتمد فى كثير من

حالاته على أداة التشبيه ، وهى أداة تقوم بالجمع بين عالمين ، عالم المشبه كطرف أول ، وعالم المشبه به كطرف ثان . فالعربى حين يتطلع إلى عالم المشبه به ، فإنه لا يوغل فى الخيال بعيدا عن الطرف الأول ، وسرعان ما تذكره أداة التشبيه بالطرفين ، فلا يوغل فى طرف على حساب الطرف الآخر .

إن ما يطمح إليه العربى هو أن يتصور عالما آخر موازيا لهذا العالم ، وهو فى تصوره لا ينسى عالمه الإنسانى ، الذى يلقى بظله على العالم المتخيل .

إن قصص «فن السياسة» و «حكام آخر زمن» و «مكر الخواجات» ، هى تنتمى إلى عالم الحيوانات ، ولكن الراوى لم يذكرها ليقتررب بها بعيدا عن عالم الإنسان ، إنه يضربها فى الأصل مثالا للعالم الإنسانى ، وهى فى عالم البلاغة تنتمى - شأن كل الأمثلة - إلى مايسمونه بالاستعارة التمثيلية ، التى تقوم فى أساسها على فكرة تشبيه حالة بحالة ، حقا إن المشبه (وهو هنا عالم الإنسان) يختفى عند إجراء الاستعارة ، ولكنه حاضر من خلال قرائنه ويلقى بظلاله على العالم الآخر . ومن هنا كانت العناوين التى اخترتها لهذه القصص توحى بعالم الإنسان ، وتحتمل إسقاطات معاصرة ، لتفيد قدرة هذه القصص على الامتداد التاريخى .

وهذا الحضور بين العالمين لايمنى أن العربى لا يستطيع أن يحلق بعيدا فى عالم الخيال ، وأنه دائما مشدود إلى عالم الحقيقة ، لا يستطيع أن يتجاوزه ، ولكنه يعنى ميلا أصيلا عند العربى ، تبيينه فى كثير من ظواهر حياته ، إلى الجمع بين العالمين عالم الشهادة وعالم الغيب ، عالم الحقيقة وعالم المجاز . . . إلخ .

وقد فسرت هذا الميل بفكرة الوسطية العربية ، التى تعنى التجاور بين العالمين ، فلا يطغى عالم على آخر ، وتتخذ من أداة التشبيه وصلة بين هذين العالمين .

ولم يتنبه إرنست رينان إلى هذا الميل المتأصل عند العرب ، فسارع بالحكم على أن العربى لا يستطيع أن يحلق بعيدا فى عالم الخيال ، فهو يكتفى بالخيال التفسيرى ، الذى يفسر شيئا بشيء ، يرى الفتاة الجميلة فيتذكر القمر ويربط بينهما ، فهو يحتاج إلى تكأة لكى ينتقل من عالم إلى آخر ، ولا يستطيع أن يبتكر عالما من أصله ، يتصوره دون هذا الخيال التفسيرى ، الذى يقوم على التذكر والمشابهة .

- ١٥ -

وتأتى النهاية نتيجة لتلقائية لكل ماسبق ، فكل شيء يتم بخفة وهذوء . السخرية غير جارحة ، والصراع لا يحتد ، والخيال لا يشتط ، وتأتى النهاية فتبارك كل ذلك ، وتكون نهاية سعيدة ، وكأنها نغمة القرار فى سيمفونية تدور فى انسياب وخفة وبلا ضجيج .

إن معظم النهايات فى تلك المجموعة ، تنتهى بتلك النهاية السعيدة ، ففى قصة «الأعرابى والحسنة» يتأزم الموقف ، ويطمع الخليفة فى الحسنة ، ولكنه لا يعكر صفو الحاضرين ، ولا يفسد متعتهم بشعر الأعرابى ، فيمسك عليه زوجه ويصله ، ويخرج الأعرابى وهو ينشد فرحا :

خلوا عن الطريق للأعرابى إن لم ترقوا ويحكم لما بى

وفى قصة «معاذ الله» تستأثر الشامية بالرجل ، وتصبّر زوجته الأولى ، وتخلص له ، وهنا يتدخل عنصر الموت لحل هذه الإشكالية ، فتموت الشامية ، ويعود الزوج إلى زوجته الأولى ، ويكافئها على إخلاصها .

وفى قصة «سليمى والعاشق» يندمج الناس فى مأساة هذا الفتى ، ولكن ما أسرع أن يندفع ابن عائشة فى الغناء ، فيبدد جو الانقباض ، ويعود الناس من متزهمهم سعداء ، وقد جمعوا بين حديث العشق وإنشاد الشعر .

تأتى هذه النهايات السعيدة مبررة بمقاييس هذا الجنس الأدبى عند العرب ، ولو كانت غير ذلك لبدت نابية ، أشبه بكورس إغريقى فى زفة بلدى .

وهنا خطأ الذين يحاكمون العمل الأدبى بمقاييس محفوظة ، ومنقولة من بطون الكتب ، وكأن النقد هو طقوس دينية تتلى فى المناسبات المختلفة .

النقد هو إحساس بالعمل الأدبى ، ثم استخلاص لغة هذا الإحساس من داخله ، فيكون لكل جنس أدبى لغته ، بل لكل عمل أدبى ، قصيدة أو قصة ، لغته الخاصة . ولا يعنى هذا الفوضى ، فإن ثقافة الناقد تتدخل فتضبط أحاسيسه .

وهنا خطأ الذين يدينون النهايات السعيدة فى القصص العربى ، ويتهمونها بالسطحية ، وبأنها تلقى ماء باردا على صراع محتد ، أو ينبغى أن يكون محتدا ، وأنها تناق المستمع ولا تريد أن تتركه فى مزاج غير سعيد ، وتشبه ألف ليلة وليلة وسائر القصص الشعبية ، التى دائما تنتهى بالزواج والتبات وخلفة الصبيان والبنات .

نحن لسنا فى مجال القصص التقليدى، الذى عرف على الطريقة الأوروبية، وهى طريقة تختص بالصراع وتشعله، توقد ناراً ولا تطفئها، وتأتى النهاية، أو ما يسمونه بالنهاية المفتوحة، وهى أرقى أنواع النهايات بلغة هذه القصص، فتعمل على إشعال الصراع داخل القارئ، إنها لا تريحه، ولا تقدم له الحل، بل يكون همها أن تستثير حالة الصراع داخله، فلا ينتهى بنهاية القصص والفراغ من القراءة، إنها تصاحبه كمزاج متوتر، يحرص المؤلف على جدله منذ اللحظة الأولى فى القصة، ويتنامى به حتى ساعة الذروة، ثم يلقيه فى روع القارئ خلال نهاية مفتوحة، تثير ولا تقدم الحل.

نحن فى مجال القصص العربى، وهى قصص تقوم على المتعة والتسلية، وتعامل كل شىء بخفة ودون إيغال، فالصراع لا يحتد، والخيال لا يشتت، والفكاهة لا تخرج، ثم تأتى النهاية فتبارك كل هذا، فلا تعكر المناخ العام، ولا تكدر صفو المستمعين.

- ١٦ -

وقد وقعت فى شىء شبيه بهذا فى بداية حياتى، وأنا أكتب رسالتى عن فن القصص عند العرب، مع التطبيق على نموذج قصص العشاق، كنت يومها محملاً بمقاييس أوروبية، فأخذت أطبقها على القصص العربى، وكانت النتيجة أننى أدنت العناصر الفنية الخاصة بهذه القصص.

قلت عن الصراع «ولكن القاص لم يستغل مواقف الصراع فى هذه القصص استغلالاً كافياً، ولم يتخذها نقطة انطلاق تنمى القصة، وتزيد من حيويتها، بل اكتفى بتسجيل هذا الصراع بإشارات مقتضبة،

وتلميحات خفيفة . فقد ير بموقف ثرى ، وتحس أن الأمر يحتاج إلى إفاضة وشرح ، ولكن القاص يمر به مروراً سريعاً ، مسجلاً له فى جملة أو جملتين ، وقد تشاهد دمعة تترقرق فى عين عاشق ، وتحس أنها تخفى وراءها تياراً عنيفاً ، ولكن القاص يسجل الدمعة ثم يمر ، لا تبطن ما تحتها ، ولا يعنيه ما وراءها» (ص ٢٧٦) .

وقلت عن الفكاهة بأنها «ساذجة لا تعبر عن غرض فى ذهن القاص ، أو تكشف عن نفسية لشخصية من الشخصيات ، وإنما هى عبارة عن حركة بهلوانية ، أو منظر يخالف المؤلف ، أو مطب يقع فيه شخص ، وهذا النوع من الفكاهة قد يرضى العامة ، ولكنه من الناحية الفنية أوداً الوسائل ، وأقلها نضجاً وثناء» (ص ٢٨٨) .

وقلت عن النهاية «ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهاية ، مفهومًا لدى القاص القديم بوجه عام ، فقد كان يترك قصته تسير بدون رقابة ، حتى تحط رحالها ، وتختار النهاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها لها السامعون» (ص ٣١٧) .

واليوم وأنا أعيد النظر فى كل هذا ، أرى أن هذه العناصر مبررة بمنطق القصص العربى ، ومن خلال المقاييس المنتزعة من داخله ، فهى تخاطب الإنسان العربى ، وتخاطب تركيبته الثقافية ، التى هى مصطلحه مع الكون ، وتعيش فى ظل إله يتولاها بعنايته ، ومن هنا فهى لا تريد للصراع أن يحتد ، ولا للسخرية أن تشتد .

أن تنتزع من حديثنا عن البنية الفنية للقصص العربى ، وهذا يعنى أن الرؤية ملتبسة بالبنية ، وليست البنية مجرد إطار خارجى يكسو الرؤية كالثوب الجميل .

إن نجاح العمل الفنى هو أن تكون رؤيته ملتبسة بينيته ، وأن يكون كلاهما (الرؤية والبنية) مبررتين بواقع لحظة تاريخية منتزعة من البنية نفسها ، أما أن تكون الرؤية فى جانب ، أو البنية فى جانب ، أو أن يكون كلاهما معبرا عن واقع تاريخى وافد ، فهذا كله يعنى أن الإنسان العربى لم يبلور بعد موقفه .

ذكرنا من قبل فى الفقرة / ٨ ، أن هدف القصص العربى هو المتعة الحسية بالدرجة الأولى ، وقد انعكس هذا الهدف على كل المظاهر الفنية ، التى جاءت لتمتع الحواس وليست لتثير الجدل ، وبدا كل شىء أملس على السطح ، لا يعمق صراعا ، ولا يوغل فى خيال ، ثم جاءت الرؤية بعد ذلك صورة تلقائية لكل هذه المظاهر ، أو قل جاءت قبل ذلك ، فربما كانت الرؤية نفسها هى وراء كل هذه المظاهر ، التى تعامل كل شىء بطريقة خفيفة ، لا توغل فى الصدام ولا فى السخرية ، أو قل جاء الأمران معا دون تمييز السابق من المسبوق ، فالرؤية ملتبسة بالبنية ، والبنية ملتبسة بالرؤية .

فالإنسان العربى فى هذه القصص يبدو مصطلحا مع من حوله ، يعيش فى ظل إله يتولاه بعنانيته ، وهو لا يفترض سوء نية فى العلاقة بينه وبين ربه ، تقوم على أساس أن الإله يغار من الإنسان ، ويخفى عنه أشياء هى مصدر قوته ، وإن الإنسان يتحين الفرصة لكى يختلس شيئا منها يطاول به مقام الإله .

الإنسان العربى يعرف أنه خليفة الله ، وأن الله قد استودعه سر الأسماء ، وطلب منه أن يعمر الكون ، وينشر رسالته . وهو يعرف أيضا أنه عرضة للصراع بين الخير والشر ، وأنه مطالب بأن ينصر الخير ، وأن يبذل فى ذلك جهده ، وأن الله سيكافئه بلا ريب على حسن نيته . ولكنه قد يخطئ ، لا بأس فهو يحمل إمكانية خطئه داخله ، ومن هنا فلن يقع فى ندم وصراع مميت ، يقضى طيلة حياته يكفر من أجل خطيئته ، فباب التوبة مفتوح ، وبعدها يصبح نقيا كما ولدته أمه ، ثم يمارس حياته من جديد ، فلا ينعزل ولا يجبن خوفا من التجربة ومن الوقوع فى الخطأ ، فخير له أن يجرب ويخطئ من أن يجبن وينعزل ، فهناك دائما رب غفور . وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فكل شىء مقدر ، وما عليه إلا أن يؤدى واجبه باستماتة وحتى آخر نفس ، فهذا هو دوره ، وهذا هو المطلوب منه وكفى ، ولا يتطلع لشىء وراء ذلك ، ولا يطمع فى مقام غير مقامه ، ولا ينظر إلى عالم الإله المطلق ويختلس شيئا من الأسرار ليست فى مقدوره ، وهو من أجل أن يعرف حدوده المرسومه ، فإن شيئا من السكينة يظلمه ويحميه من الصراع المرير .

- ١٨ -

قلنا من قبل إن القصص العربى يقف عند حد المتعة الحسية ، ويكون همه أن يشير تلك المتعة ، سواء كانت ترضى البصر والأذن ، أو حتى اللمس والشم . وتتوالى قصص الغناء ، وحديث الجوارى ، والألغاز ، والمطارحات اللفظية ، والنوادر الغريبة ، وكلها تعمل على تنمية هذه المتعة الحسية .

ونريد أن نضيف الآن، ونحن بصدد الحديث عن الرؤية، أن هذه القصص لا تقف عند حد المتعة الحسية لا تتجاوزها، لأنها لو كانت كذلك لكانت شيئاً تافهاً، يداعب الغرائز ثم يقف، ولكنها من خلال المتعة الحسية، ترتفع بكل النوادر والغرائب إلى جوفنى، هو المستول بالدرجة الأولى على تنمية هذه المتعة، ودون هذا الجو تظل القصة فى عالم الحس والمادة .

وهنا نجد أنفسنا فى مواجهة ماسبق أن ذكرته فى كتاب «الوسطية العربية»، بصدد تحديد الذوق العربى من خلال فكرة الوسطية التى تجمع بين الماديات والمعنويات، الواقع وما وراء الواقع، فلا تركز على جانب وتهمل الجانب الآخر، وقلت بالحرف الواحد:

«حقاً، فى الفن العربى حس ومتعة وبهجة، ولكن فى الفن العربى أيضاً قلقاً وبحثاً عن المطلق، فلا يكتفى فى أن يحاكي النخلة فى شكلها واستقامتها ووضوحها وألوانها الزاهية وأكلها الدائم وطلعها النضيد، بل أيضاً فيما توحى به تلك النخلة، التى تندفع فى السماء، كأنها تبحث عن المطلق، وتراقص فى الفضاء كشىء أثيرى، يريد أن يفلى من الأرض، لولا جذورها الغائرة فى طبقات التربة، فإذا كان هناك صراع بين ما يسمى «الفن للفن» و «الفن للحياة»، فإن الوسطية يمكن أن تحل هذا الصراع، وأن تصلح بين الفرقاء، فتقدم لنا مذهباً ثالثاً، وهو «الفن للفن وللحياة معاً». . « (١٢٣/٢).

ويذكر فيليب ستيفك فى مقالته «شهر زاد تتمرد على العقدة»^(١) Scherzade run out of Plot ، أن الفن الحديث ينطلق مما هو هابط

(١) The Novel Today, P. 186

ويحوّله إلى فن جاد، فروايات دستوفسكى هى مجموعة من الأخبار الهابطة، وغنائيات بوشكين هى امتداد لأغان شائعة، وأشعار بلوك هى تمثيل لأغاني الغجر، وكذلك يفعل بريخت فى ألمانيا، وأودن فى إنجلترا، وأيضا جيمس جويس فى روايته «يوليسوس»، الذى يحول الأغاني الشائعة، والمناشيتات الصحفية، والأحداث الجارية، والتخيلات الفاضحة، إلى فن يجعلنا نحس بالإثارة والمتعة، ونحن نرى هذه الأشياء الناقصة، تفتح نوافذها على إمكانات واسعة.

نحن هنا ننطلق من رؤية الإنسان العربى، ثم نلتقى فى طريقنا بأفكار معاصرة، وليس الأمر بالعكس بمعنى أن نبدأ من أفكار معاصرة ثم نطبقها على التراث العربى، والفارق كبير بين الموقفين، فموقف يبدأ مما عنده ثم يتطلع إلى الآخر، وموقف يبدأ من الآخر، وغالبا مايصل إلى شىء، سوى هذا الشىء الذى يريده الآخر.

- ١٩ -

وتؤكد قصة «صحراء وغيب» هذه الرؤية عند العربى، التى لا يكتفى فيها بالحس والمادة والواقع، فهو دائما يتطلع نحو عالم آخر، غير موغل فى البعد، ولكنه يختلف عن هذا العالم ويكمّله.

يضربون فى الصحراء، وتخرج لهم الجنية، وتشئت شملهم، ويحاول أمية بن أبى الصلت أن يتغلب عليها، ويستعين برهبان من الكنيسة، فيخبرونه بأنها جنية من اليهود تهوى الإيذاء، ويمدونه برقية تساعد عليها، وفعلا يتنصر ولكن بعد أن دفع الثمن، بياضا فى أسفله.

وكل هذا يعنى أن الصحراء ليست هى القسوة والهجير، بل كانت محملة بجو مفارق، تعكسه بطريقة غامضة قصص الجان والألغاز، التى قدمنا نماذج منها داخل هذه المجموعة.

كان الجزاء الذى أصاب أمية بن أبى الصلت جزاء يستحقه، لأنه التمس الحل من الخارج، ولجأ إلى أهل الكتاب، فوقع فريسة للتنافس بين اليهود والنصارى، ودفع الثمن ختما أبيض على عجزه، ظل يصاحبه طيلة حياته.

واهتدى الإسلام إلى الطريق الصحيح، وتبلورت مرحلة الإرهاص فى مرحلة اليقين، وأصبح عالم الغيب مصدرا للقيم والعقيدة، حافزا للمرء لكى يعيش عالم الشهادة فى نبل وتضحية.

واختفت قصص الجان وأصابهم شهاب رصد، ومنعوا من التجسس على عالم الغيب، حتى لا تختلط النبوة بالتنبؤ، وأسلم الكثير منهم، وأخذوا يبشرون بالمبادئ الجديدة للإسلام.

وحلت قصص الأنبياء محل قصص الجان لتفصل بين عهدين، عهد يقوم على اختلاس الأخبار، وخداع الناس عن طريق الكهانة والعرافة، وعهد آخر قد تبلورت فيه قيم الحقيقة والنبل والشهادة، وغير ذلك مما دعا إليه النبى (ص) عن طريق الوحى واليقين.

واختفت قصص الألغاز التى تقوم على المهارة العقلية والذكاء الشكلى، والتى تشبه الكلمات المتقاطعة، لا تقدم حصيلة عملية سوى إزجاء الفراغ وإثبات المهارة العقلية، كما نرى فى إحدى قصص هذه المجموعة، تحت عنوان «ألغاز وحلول».

وجاءت قصة موسى والخضر، لتحمل هذا القلب الذى يقوم على السؤال والجواب، الكثير من المبادئ الإسلامية، ولتؤكد الرؤية العربية الإسلامية، التى ترنو دائما نحو عالم آخر، يختلف عن هذا العالم، فهناك قوة أخرى، لها قوانينها الخاصة تختلف عن تلك القوانين الظاهرة التى تقوم على السبب والمسبب خلال تفسيرانى، إنها قوة أعمق لا تغرق فى اللحظة الراهنة ولا تقف عند العقل المجرد.

وقد حوت هذه المجموعة مثالا من القصص الدينى، يتمثل فى قصة «معاذ الله»، ولم يكن اختيار هذا العنوان عبثا، وإنما لكى يشير إلى قصة يوسف عليه السلام، الذى تملك هواه وقال لمغريته «معاذ الله، إنى أخاف الله».

فالعناصر الدينية تلقى بظلالها على هذه القصة، إن الزوجة المخلصة يكافئها الله بعودة زوجها، يحمل مالا وفيرا يخصها به وحدها، وإن الرجل التقى يتذكر وعده، ويكاد يفى به، لولا أن يتدخل القضاء والقدر، فتنتهى القصة نهاية سعيدة، تقوم على عنصر الثواب والجزاء.

- ٢٠ -

إن القصص الدينى فى الإسلام يحتاج إلى رسالة جامعية كاملة، تنخله وتمتحن الدخيل من الأصل، فليس كل ما ورد من هذه القصص يمكن أن يحسب على الحضارة العربية الإسلامية، فبعضها منحول ينتمى إلى الحضارة الفارسية أو البيزنطية أو البابلية^(١) أو غير ذلك من حضارات تحيط العربى من كل جانب.

ويخيل لى أن قصص لقمان مع المرأة ، والتي أوردت نموذجاً منها تحت عنوان «مكر النساء» ليست من القصص العربية الأصيلة ، فهي تتصادم مع رؤية العربى ، والتي أكدها الإسلام بقيمه التي تقوم على العظة والانضباط . فهي أقرب إلى الإسرائيليات ، وصورة المرأة فيها أقرب إلى صورة «أستير» كما جاءت فى التوراة .

- ٢١ -

هذه الظواهر الفنية التي ذكرناها ، ابتداء من الفقرة / ١ وحتى النهاية السعيدة ، استغلها توفيق الحكيم فى روايته «أشعب أمير الطفيلين» ، فكان بذلك رائداً فى إحياء فن النادرة .

هو للملم أخبار أشعب من الكتب العربية القديمة ، ثم أدخلها «مطبخه الفنى» كما يقول ، فكانت تلك الرواية ، التي تقوم على فصول ، كل فصل يبدو مستقلاً ، ولكن الجميع يتعاونون على غرض واحد ، هو جو التسلية ، والذي يقوم بالدرجة الأولى على المتعة الحسية ، وخاصة متعة الأكل .

وقد أشار الحكيم ، بأسلوب يتناسب مع جو النادرة ، إلى مصادره فقال فى المقدمة :

«لقد استحضرته اللحم والبقل والتوابل والأباريز ، من حوانيت أريعة مشاهير : الجاحظ وابن عبد ربه والخطيب البغدادى وبديع الزمان ، فقد بهرنى حقاً ، وأسأل لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف . . فملأت يدى مما تخيرت من أطايبها ، وذهبت به إلى «مطبخ فنى» ، حيث مزجته وخلطته ، وجعلت منه «عجينة» واحدة ، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول» .

وهو فى طبخته الفنية لا يبتعد عن الأصل، ولا يشوه شكل النادرة بالخروج عن نسقها، ولم يحمل روايته مضامين فلسفية، ولا تحليلات نفسية، ولا إسقاطات معاصرة، بل كان يتعامل مع النادرة من السطح بخفة ودون إيغال، وبهدف المتعة والتسلية، ومن هنا خطأ الذين لم يفهموا حقيقة هذا الإنجاز، وأدانوا الرواية بحكم أنها وقفت عند حد عرض القديم، دون أن تحملها رموزا معاصرة.

إن كلمة «طبخة» تتناسب مع فن النادرة وخاصة نوادر أشعب التى تقوم على متعة الأكل، ومن هنا جاء أسلوب الحكيم الذى ذكرناه سابقا يتناسب ونوادر الطفيليين.

وكل شىء فى رواية الحكيم يتم بمفهوم النادرة العربية، فالسخرية خفيفة، قريبة من «الفكاهة العربية»، التى تضحك وتنبه الشخصية إلى شذوذها، ولكن دون أن تخرج أو تؤلم، فأشعب مثلاً يطلب من النخاس حمارا «ليس بالصغير المختصر، ولا بالكبير المشتهر، إذا خلا له الطريق تدفق، وإذا كثر الزحام ترفق، إن أقللت علفه صبر، وأن أكثرته شكر، وإذا ركبته هام، وإذا ركبه غيرى نام». وهنا الفرصة مواتية لكى تسخر النادرة بطريقة خفيفة من طائفة القضاة، فيقول النخاس مخاطبا أشعب «يا عبد الله، اصبر، فإن مسخ الله قاضى مكة حمارا أصبت حاجتك إن شاء الله».

والأسلوب يحاكي به الحكيم أسلوب النادرة، فأتى مصقولا جزلا، مليثا بالسجع والمحسنات البديعية، تتناثر فيه الأبيات الشعرية التى تخاطب الحس، وتقف عند حدة المتعة «fun» أو اللعب «play» دون إيغال:

كأنها أفرغت فى قشر لؤلؤة فى كل جارحة منها لها قمر
ألا ليت خبزا قد تسربل رائبا وخيلا من البرنى فى فرسانها الزبد
ويستخدم الحكيم المبالغة بمفهوما القديم، لكى يهول من الموقف
ويضفى على التافه شيئا من الجدية، ففي أحد المواقف يقول عن أشعب
«وجعل يجول فى القصعة، كما يجول الفارس فى الميدان، فلما رآوه قد
أغار على أكلهم، وكاد يحرمهم زادهم فى غير حشمة ولا حياء، نظر
بعضهم إلى بعض ثم التفتوا إليه».

فالمبالغة فى هذا الموقف تتسرب حتى فى الأسلوب، وهى مبالغة
متعمدة حتى تصبح المشاكلة تامة، فإن أسلوب الحكيم فى مسرحياته هو
أسلوب عملى، يخلو من الزخرفة، ويقصد إلى هدفه مباشرة.

والحكيم فى مثل هذه المواقف يرمى إلى نوع خفيف من المفارقة، تقدم
الشيء التافه فى صورة جادة، كتلك الوصية التى يقدمها أشعب إلى
صديقه بنان وقد أوصى له بعرش الطفيليين بعده، فهى وصية جادة فى
موقف هازل، أضحكت الخليفة والحاضرين، من أجل هذه المفارقة التى
أتت عرضا ودون تصنع.

يضحك الخليفة من هذه المفارقة، وينشرح صدره لأشعب، ويمنحه
الخلع، ويروجه من الجارية «رشأ» وتنتهى الرواية تلك النهاية السعيدة،
وأُسرع أشعب «إلى يد أمير المؤمنين، فاخطفها اختطاف الجائع للرغيف،
ورفعها إلى فمه، وأشبعها لثما وتقبيلا».

وتنتهى رواية أشعب عند تلك الجملة، لتمثل نهاية تلقائية تتناسب
وفن النادرة، وفى أسلوب يتناسب مع الموضوع، وخلال مفردات عن
الجائع والرغيف والشبع، توحى بالجو العام عند الطفيليين.

الخاتمة

كانت هذه المسيرة مع فن النادرة العربية فى معناها أو مبنها، والتي كانت تلتقى أثناء سيرها بالكثير من الإنجازات الغربية المعاصرة.

وهذا يعنى أن هذا التراث صالح للبقاء، وصالح للتداول مع التراث الإنسانى.

وقد انقطعت صلة القصة العربية الحديثة بهذا التراث، وتوجهت نحو الغرب، تستورد منه الأجناس الأدبية، بما تحمله من رؤية وملاح فنية.

فكان أن اغتربت القصة العربية الحديثة. ووقعت فيما أسميه «الإيغال»، سواء كان هذا الإيغال فى عقلانية مفرطة، أو فى لا عقلانية مفرطة.

فالقصة الواقعية التى عرفناها منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، والتي أصبحنا نطلق عليها الآن القصة التقليدية مسائرة للمصطلح الغربى - هذه القصة تقوم على عقلية مفرطة «لا تخر الماء»، تتمثل فى التركيز على بورة واحدة، وكأنها المبدأ الواحد، أو الجوهر الأصيل، وفى توالى الأحداث من خلال فكرة السببية، فكل حدث يؤدى إلى ما بعده ضرورة

أو احتمالا، وتخضع القصة فى النهاية لخط تاريخى تطورى، ينتهى إلى نتيجة حتمية .

ونتيجة لهذا الإيغال فى العقلانية الصارمة، وقعت القصة فى إيغال يقوم على لا عقلانية، تطيح بكل القواعد، ومن خلال مصطلحات سبق أن شرحناها عن العشوائية والتجاوزية، وقد أدى الإيغال فى اللاعقلانية إلى أن تصبح القصة فى العالم العربى خليطا من الهلوسة والعقد والأمراض النفسية .

وهنا تأتى العبرة التى لا تعلوها عبرة .

إن مرحلة القطيعة مع التراث القصصى هى مرحلة مصطنعة، يخسر فيها العالم العربى والعالم الغربى على حد سواء .

أما العالم العربى فلم يبدأ من جذوره، ولم يمتد خلال هذه الجذور إلى فاق إنسانية، فأصبح كالنبات الطافى فوق سطح المياه، يتحرك مع مهب لرياح .

ومن هنا لم تستطع القصة العربية الحديثة أن تقدم لنا رؤية شرقية بهيجة تقوم على الإمتاع الحسى، وتصل من خلاله إلى المتعة الفنية، بل وقعت فى سبائية الإيغال فى عقلانية مفرطة، أو لا عقلانية مفرطة أيضا .

ولم تستطع أيضا أن تقدم لنا شكلا أصيلا، يقوم على فكرة «الفقرات» التى سبق أن شرحناها فيما سبق، ويتنقل فيها القارئ من فقرة إلى فقرة، ومن طرفه إلى طرفه، فيصبح العمل الأدبى كالعقد الفريد فى لمعانه وتنوعه، أو كالكرة المعدنية التى تقفز فى سرعة وحيوية فى ماكينة اللعب على حد تعبير لودج .

أما العالم الغربى فقد خسر رافدا جديدا ، وخاصة أنهم يبحثون عن الجديد ، بعد أن أصبحوا فى عنق زجاجة ، نتيجة للتركيز على الإنجازات الإنسان الأوروبى وإهمال ما سواها .

وقد بدأت القصة العربية الحديثة تراجع موقفها ، وتلمس تراثها القديم بلا خوف ولا عقد ، وبرزت فى الفترة الأخيرة أعمال كثيرة ، تستوحى التاريخ ، ليس فى الموضوع فحسب ، بل فى الشكل أيضا .
المسيرة طويلة ولكنها بدأت .

وهى تحتاج قبل كل شىء إلى شجاعة فائقة تتخلص مما أسميه «تراكمات النظرة الغربية» .

وليس من السهل التخلص من هذه التراكمات ، فهى قد تجذرت فى البنية على مدى سنين طويلة ، وهى تكسب أصحابها وجهة وحدائة ، وصعب على النفس أن تطيح بمكاسبها فى لحظة .

وهى أيضا سهلة ، تقوم فى حالات كثيرة على اجترار ما هو قادم من عند الإنسان الأبيض ، واصطناع لغته التى تقوم بعنصر التخدير للإنسان العربى ، الذى وقع تحت هيمنة الاستعمار فترة طويلة .

إن الأصالة تعنى الإطاحة بالجنة الجاهزة ، التى صنعها لنا السيد ، ولا تحتاج سوى زرار ، فنجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

وكثير من العبيد يفضلون الجنة الجاهزة ، التى يصنعها لهم السادة المتفوقون ، ويرفضون الحرية ، لأنها تعنى فى وجهها الآخر المسئولية .

وقد دفع سبارتاكوس ثمن الحرية ، وسوف يدفعها أبناؤه من بعده ممن تصطفيهم الطبيعة ، وكأنها مخلوقات من جنس آخر ، تدفع الثمن تضحية

براحتها، من أجل بقاء النوع الإنسانى، فى صورته التى تميزه عن بقية المخلوقات .

وكل هذه الخواطر سوف نتولاها بالتفصيل فى كتاب قادم تحت عنوان «نحو رواية عربية» ، أرجو أن يظهر فى القريب العاجل بإذن الله .

من مؤلفات المؤلف

- * قصص الحب العربية . (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨) .
- * من قصص العرب : (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ م) .
- * قصص العشاق النثرية : دراسة فى التراث القصصى (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ م) .
- * القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث . (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣) .
- * الأدب وتجربة العبث . (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ م) .
- * القصة اليمنية المعاصرة . (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦) .
- * ألوان من القصة اليمنية المعاصرة (الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨ م) .
- * الوسطية العربية (٨ أجزاء)
- الكتاب الأول : المذهب (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠ م) .

الكتاب الثانى : التطبيق (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م)

الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة (الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م).

الكتاب الرابع : نحو رواية عربية (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م).

الكتاب الخامس : حلم ليلة القدر (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م).

الكتاب السادس : القرآن الكريم والمذهب الوسطى (تحت الطبع).

الكتاب السابع : مسرح الحكيم بين الوسطية والتعاضدية (تحت الطبع).

الكتاب الثامن : على هامش الوسطية العربية (تحت الطبع).

* المسرح المصرى بين ثلاثة أجيال (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م).

* القصة القصيرة فى الستينيات (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م).

* القصة القصيرة فى السبعينيات (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م).

* لقطات : ألان روب جريه (ترجمة) (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م).

* الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦ - الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٤م).

* مقالات فى النقد الأدبى (١٥ جزء) (الجزء الأول سنة ١٩٨٨م).

الجزء الخامس عشر (تحت الطبع)

- * قاموس الألوان عند العرب (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨ م).
- * نقاد الحدائق وموت القارئ (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م).
- * الرواية العربية والبحث عن شكل (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨ م).
- * حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم :
- الجزء الأولى سنة ١٩٩٦ م.
- الجزء الثاني سنة ١٩٩٦ م.
- الجزء الثالث (تحت الطبع)
- * الأدب المقارن من منظور الأدب العربي (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧ م).
- * شواهد ومشاهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦ م).
- * الرواية العربية والبحث عن جذور (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ م).
- * القصة القصيرة والبحث عن شكل (تحت الطبع).
- * نواذر الحب والحكمة : سلسلة من تراثنا القصصي العدد الأول : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ م).
- * التراث القصصي عند العرب (تحت الطبع).
- * قال لقمان لابنه : الجزء الأول (تحت الطبع).
- * العرب وعلوم الجمال (تحت الطبع)

✽ نجيب محفوظ والفن الروائي (تحت الطبع).

✽ القصة القصيرة وظاهرة العبث : نماذج من الأدب العالمي (ترجمة) (تحت الطبع).

✽ على هامش القصة اليمنية المعاصر (تحت الطبع).

الفهرس

١٦-٥ تقديم :

الحديث ولذته فى كتاب الإمتاع والمؤانسة - مؤلفات حول هذا الفن - لغز
حول الحديث - متعة الأحاديث عند العرب - رواة للأحاديث - تناثر
القصص العربية فى الكتب الأدبية المختلفة - مؤلفات حول هذه القصص -
فن النادرة العربية يقال للمتعة الخالصة - جمهورها من العامة - لم تجد
الاهتمام الكافى من النقاد - أسباب ذلك - السير الشعبية - تطورها من
الناحية الفنية - مظاهر هذه التطور - لغتها ركيكة - انصراف النقاد عنها -
أرنست ينكر معرفة العرب بالفن القصصى - الزيات يردد هذه الأفكار -
وأيضاً أحمد أمين - وكذلك العقاد - مدرسة الفجر تهاجم التراث القصصى
والقصة العربية الحديثة - الأكاديميون يؤصلون لهذه القطيعة - شكرى عياد -
النتيجة إلغاء التراث القصصى .

١٧ الباب الأول : نماذج تراثية

١٨ إذن بالدخول

١٩ الأعرابى والحسناء

٢٢ مأساة عاشق

٢٤ دفنا خشباً

٢٦	مكر النساء
٢٨	معاذ الله
٣٠	سليمى والعاشق
٣٢	سلطان الفن
٣٤	لا تقتليه
٣٥	الأعرابى الظريف
٣٦	حديث الأعرابى
٤٠	خيال الأعراب
٤١	اللس الظريف
٤٤	الرجل النباج
٤٦	رأس الديك
٤٧	المتنبى الظريف
٤٨	دون كيشوت
٤٩	عالم الأقوال
٥٠	تلاعب لفظى
٥٢	الغاز وحلول
٥٤	هاتف من الصحراء
٥٧	صحراء وغيب
٥٩	عالم الجن
٦١	عظيم فى الحياة وفى الممات

٦٣	فن السياسة
٦٤	حكام آخر زمن
٦٥	مكر الخواجات
٦٦	ندم وسهر
٦٨	سعد الموعود
٧٠	لعنة الحذاء
٧٣	عودة على بدء
١١٦-٧٥	الباب الثاني : قراءة عصرية
	مفهوم الوحدة فى القصص العربى القديم - الرابطة - منهج التأليف الأدبى -
	التجاوز - الوحدة التركيبية - الانقطاعية - قصص الفقرات - مثال - العشوائية
	- القص واللصق - التجاوزية - مثال - الوحدة التركيبية ليست عشوائية ولا
	تجاوزية - مفهوم العنوان بين الوحدة التركيبية والوحدة العضوية - اقتحام
	البنية الفنية للقصص العربى - البحث عن مصطلحاته الخاصة - هذه
	المصطلحات قد تفضى إلى التراث الإنسانى - البداية تكون أولا من التراث
	واللقاء يكون بعد ذلك مع العالمية - تهدف القصص العربية إلى جانب المتعة
	والتسلية - أمثلة - مقياس عبرى - سونتاج ضد التفسيرية - مصطلح
	الشفافية - عالم الفن له قوانينه الخاصة - أمثلة على ذلك من واقع القصص
	العربى - الملامح الفنية فى القصص العربى تقف عند السطح ولا توغل -
	الفكاهة لا تخرج - قصة لعنة الحذاء - قصص الأعرابى الظريف - بين
	الأعرابى والصعيدى - الصراع يتم بخفة أيضا - أمثلة - الصراع عند الإغريق
	- الفروق - القدر وقصة سعد الموعود - الخيال عند العرب قريب - أمثلة من
	قصص الحيوان - النهاية سعيدة - أمثلة - هذه النهايات مبررة ولا يجوز
	انتقادها بمقاييس جديدة غير ملائمة - فهم خاطئ لفنية القصص العربى -

الرؤية فى تلك القصص - وهى رؤية منتزعة من مسيرة التاريخ - الذوق العربى من خلال تلك القصص - وهو ذوق يقوم على موقف وسطى بين الفن للفن والفن للحياة - القصص تؤكد النظرة الوسطية التى تجمع بين الواقع وما وراء الواقع - قصة صحراء وغيب - قصص الجان - قصص الأنبياء - قصص الألفاظ - قصة موسى والخضر - عناصر القصة الدينية - تطبيق على قصة «معاذ الله» - قصص لقمان - توفيق الحكيم يحيى فن النادرة العربية - رواية أشعب أمير الطفيليين - مصادرها - تتفق وطبيعة النادرة العربية فى الفكاهة - وفى الأسلوب - وفى المبالغة - وفى النهاية السعيدة .

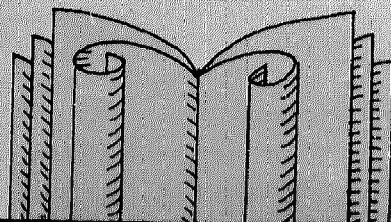
الخاتمة ١١٣-١١٦

الانقطاع بين التراث القصصى وفن القصص العربية الحديثة - فكرة الإيغال - نتائج الانقطاع خسارة على العالم العربى والعالم الأوروبى على حد سواء - العودة إلى التراث - الطريق طويلة وشاقة - ولكنها ضرورية .

رقم الإيداع ٣٨٢٥ / ٩٨
الترقيم الدولي 1 - 0451 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع 'مسيوبه المصري' - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٢٧٥٩٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



من تراثنا القصصى

نوادير الحب والحكمة

من هنا تأتى أهمية هذا المشروع عن التراث القصصى عند العرب . فهو يحاول من ناحية أن يقوم برد اعتبار لعنصر التراث القصصى ، وأن يوجه النقد إلى دراسته من داخله ، واكتشاف قوانينه الخاصة به ، وهو يحاول من الناحية الثانية ، أن يعيد الحلقة المفقودة بين التراث والفن القصصى المعاصر ، وأن يلفت نظر المبدعين إلى استيحائه ، سواء فى القالب أو فى الرؤية ، فيضيفوا إلى مسيرة الحركة الأدبية العالمية ، تيارا مميزا يعكس موقفا حضاريا . وهو من أجل ذلك كله ، يقدم التراث القصصى مضبوطة وموثقا من ناحية . وهو من ناحية أخرى ، يقدم دراسات متخصصة حول هذا التراث ، تؤسس لحركة نقدية ، تكشف قوانين أصيلة ، نابعة من تاريخ الفن القصصى عند العرب ، تساعد على تطوره من مرحلة إلى مرحلة .

دار الشروق

القاهرة : شارع جمهورية مصر - رابعة العدوية - مدينة نصر
من ب : ٢٢ البابوا - تلپون : ١٠٣٣٩٩ - فاكس : ١٠٣٧١٧ (٠٢)
بوربون - من ب : ٨٠٦٤ - فاكس : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٢٢ - فاكس : ٨١٧٧١٥ (٠١)

